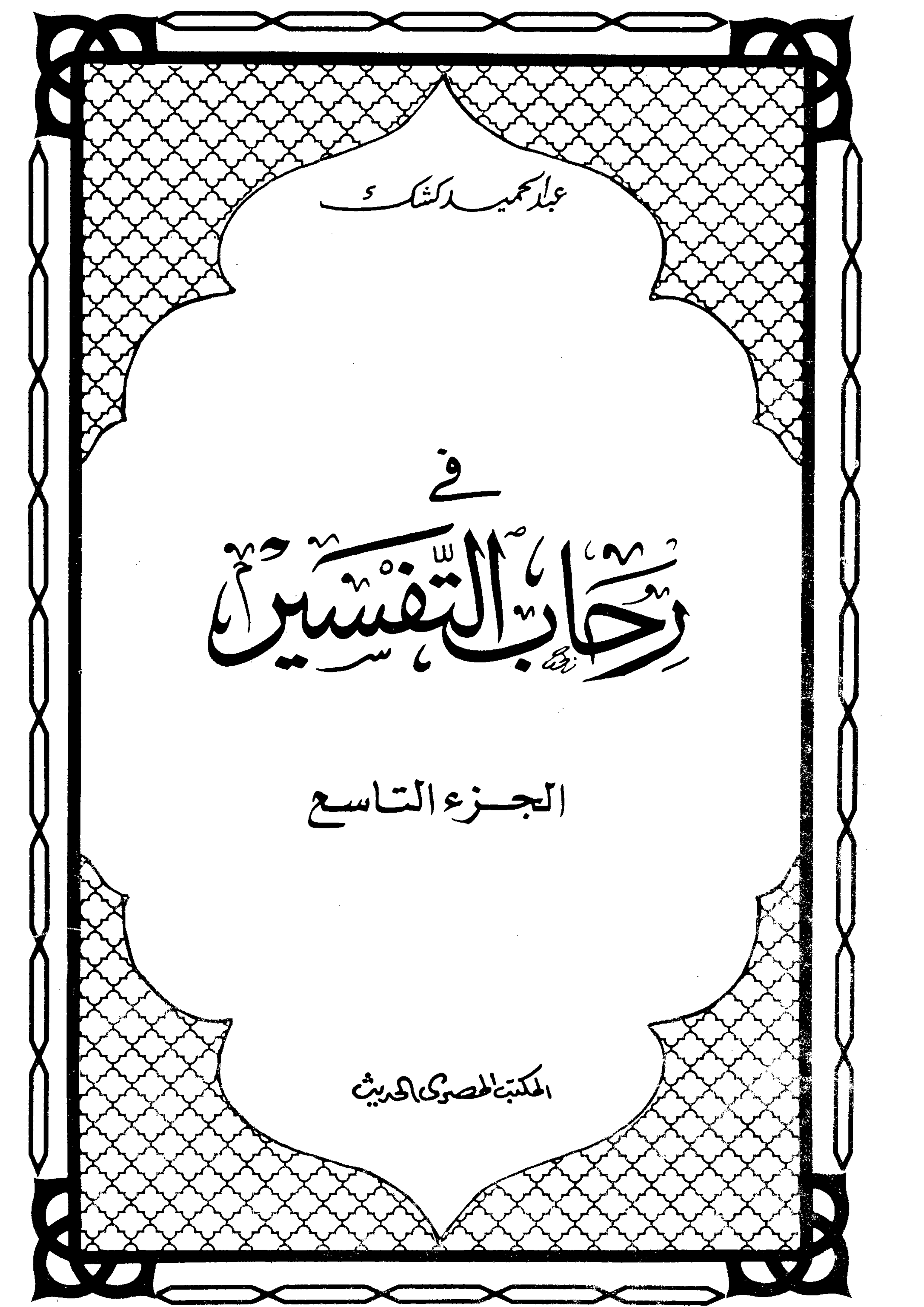


عبد الحميد كشك
في
رحاب التفسير
الجزء التاسع
المكتب المصري الحديث

مازال الحديث عن قصة نبى الله شعيب على نبينا وعليه الصلاة والسلام . ونبدأ من الحديث ما كان قد انقطع بقوله تعالى :

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾

المفردات : ﴿ **الرجف** ﴾ : الحركة والاضطراب والمراد بها الزلزلة ومنه ﴿ يوم ترجف الأرض والجبال ﴾[1] ﴿ وغنى بالمكان يغنى ﴾ : كرضى يرضى . إذا نزل به وأقام فيه ﴿ والأسى ﴾ : شدة الحزن . وكانت مدين تمتد من خليج العقبة إلى موآب وطور سينا وفى رواية إنها كانت تمتد من شبه جزيرة سينا إلى الفرات . ومدين تطلق على القبيلة كما تطلق على المدينة . وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر . وكان يلقب بخطيب الأنبياء لفصاحة عبارته وجزالة موعظته .

هل صبروا حتى يحكم الله ، لقد قالوا له متهكمين ساخرين : ﴿ ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد * قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾[2] . وقالوا له كما جاء فى سورة الشعراء ﴿ إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشرٌ مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ﴾[3] وفى سورة الأعراف ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا ﴾ .

(١) الآية ١٤ من سورة المزمل .
(٢) الآيتان ٨٧ ، ٨٨ من سورة هود .
(٣) الآيات ١٨٥-١٨٧ من سورة الشعراء .

خيروه بين أمرين : الإخراج من القرية ، أو الدخول فى ملة الكفر ﴿ **قال أو لو كنا كارهين** ﴾ أى أترغموننا على ذلك ولو كنا كارهين ، إن الدخول فى الكفر أمر محال دونه ضرب الرقاب ﴿ **قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها** ﴾ .

أبعد النجاة وإنعام الله علينا بالتوحيد ، والتزام الصراط المستقيم ، والسير فى طريق الهدى والنور **ندعوَمن دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا** ﴿ ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ، كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران ﴾[1] ﴿ **وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شىء علماً** ﴾ هذا تفويض مطلق للمشيئة العليا ، فالوجود ملك الله والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته سبحانه ، واحد بلا عدد ، وقائم بلا عمد ، وباق بلا أمد ، علا فقهر ، وبطن فخبر ، وملك فقدر . يقص الحق وهو خير الفاصلين ، أحاط بكل شىء علماً وأحصى كل شىء عددا .

﴿ **على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين** ﴾ أى احكم بيننا وبين هؤلاء فأنت أعدل العادلين ، وأسرع الحاسبين وأحكم الحاكمين ، لاراد لقضائك ، ولا معقب لحكمك .

فهل أطاعوا وأذعنوا وانقادوا وسلموا لله الأمر ، إن ذلك كله كان صرخة فى واد ، ونفخة فى رماد .

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادى
ونار لو نفخت بها أضاءت ولكن أنت تنفخ فى رماد

فأعجب معى لما قاله القوم بعد هذا النصح والترغيب والترهيب ، ونور الوعد ونيران الوعيد ، إن هؤلاء لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ،ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ، اسمع ماذا كان ردهم : ﴿ **وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون** ﴾ .

ترصّد وسبق إصرار على الجناية ، وسفه وعناد وبطر للحق ، وتصميم على الباطل ، وتحريض على دعوة الله ، إذاً لقد بلغ السيل الزبى ، ولم يبق فى قوس الصبر منزع ، فلابد من كلمة الفصل ، ولا يملك كلمة الفصل إلا الحكم العدل : ﴿ **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين** ﴾رجت الأرض رجاً ، لأنهم أرجفوا المؤمنين وهددوهم ، وأوعدوهم ، فلابد أن يكون الجزاء من جنس العمل لقد أصبحوا فى دارهم أجساداً هامدة ﴿ **الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها** ﴾ أى كأنهم لم يكونوا مقيمين فى تلك الديار ، ليس الذين اتبعوه من الخاسرين ، بل هم المفلحون الفائزون المؤمنون المتقون : ﴿ **الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين** ﴾ .

وهل هناك خسران أشد من أن يخسر الإنسان نفسه ، بعذاب فى الدنيا والآخرة ، وكانت نهاية المأساة أن يقول شعيب وقد أصبحت ديارهم خاوية على عروشها ﴿ **يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين** ﴾ .

كلمة تسيل لها النفس مرارة ، وتتفتت لها الكبد حسرة ولقد قالها الرسول ﷺ لصناديد قريش ،

(١) الآية ٧١ من سورة الأنعام .

وجبابرة المشركين بعد أن وضعت أجسادهم فى القليب بعد بدر ، قال لهم : « لقد وجدت ما وعدنى ربى حقا ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟ بئس عشيرة النبى أنتم كنتم لنبيكم» قالوا : يارسول الله أتخاطب قوما قد جيفوا . قال : « والله ما أنتم بأسمع لما أقول منهم إنهم يسمعون ، ولكنهم لا يتكلمون » .

وفى سورة هود يقول تعالى فى شأن أهل مدين:﴿ ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود ﴾[1] .

كانت الرجفة من الأرض، فأتبعتها الصيحة من السماء.

وفى سورة الشعراء يقول الله فى حق مدين ﴿ فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم * إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[2] .

وذلك لأنهم كذبوه ، وطلبوا منه أن يسقط عليهم كسفا من السماء ، فأرسل الله إليهم سحابة دكناء استظلوا بها من وهج الشمس ، وهى تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية ، وقد سال فيها لعاب كالمهل يشوى الوجوه . فإذا السحابة لا ظل فيها ، لقد أمطرتهم ناراً﴿ **إنه كان عذاب يوم عظيم** ﴾ فأعجب معى لرجفة وصيحة وعذاب يوم عظيم . فاللهم اهدنا بفضلك فيمن هديت ، وعافنا فيمن عافيت ، وتولنا فيمن توليت ، وبارك اللهم لنا فيما أعطيت ، وقنا واصرف عنا شر ما قضيت ، إنك سبحانك تقضى بالحق ولا يقضى عليك .

دروس وعبر

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

المفردات : ﴿ **القرية** ﴾ : المدينة الجامعة لزعماء الأمة ورؤسائها (العاصمة) ﴿ **البأساء** ﴾ : الشدة والمشقة كالحرب والجدب وشدة الفقر ﴿ **الضراء** ﴾ : ما يضر الإنسان فى بدنه أو نفسه أو معيشته ﴿ **والأخذ بها** ﴾ : جعلها عقابا لهم . ﴿ **التضرع** ﴾ : إظهار الضراعة أى الضعف والخضوع و﴿ **عفوا** ﴾ : كثروا ونموا . ﴿ **من قولك** ﴾ : عفا النبات والشعر إذا كثر . ﴿ **بغتة** ﴾ : فجأة .

بعد أن ذكر سبحانه حال الأمم السابقة مع أنبيائهم ، وبين ما فى قصصهم من العظة والعبرة ، فقد كانت العاقبة فى كل حال للمتقين ، والدائرة تدور على المبطلين .

(١) الآيتان ٩٤،٩٥ من سورة هود .

(٢) الآيات ١٨٩-١٩١ من سورة الشعراء .

أشار هنا إلى سنة الله فى الأمم التى تكذب رسلها ، أن ينزل بها اكبؤس وشظف العيش وسوء الحال فى دنياهم ،ليتضرعوا إلى ربهم وينيبوا إليه بالإقلاع عن كفرهم ، والتوبة من تكذيب أنبيائهم ، وفى هذا من التحذير لقريش ، والتخويف لهم ، مالا يخفى ، ثم ذكر أنه بدل الرخاء بالبؤس ، ليعتبروا ويشكروا لكنهم لم يفعلوا فأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

﴿ **وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون** ﴾

أى إن سنتنا قد جرت ولا مبدل لها ، أننا إذا أرسلنا نبيا فى قوم وكذبوه أنزلنا بهم الشدائد والمصائب ،لنعدهم ونؤهلهم للتضرع والإخلاص فى دعائنا بكشفها ، وقد ثبت بالتجارب لدى علماء الأخلاق أن الشدائد تربى الناس ، وتصلح فساد أحوالهم ، فالمؤمن قد يشغله هناء العيش عن حاجته إلى ربه ، لكن الشدائد تذكره به ، والكافر بالنعم قد يعرف قيمتها له بفقدها ، وتنبهه الشدائد والأهوال إلى وجود الرب الخالق المدبر لأمور الخلق ، وتذكره الأهوال بمصدر هذا النظام فى الكون .

﴿ **ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة** ﴾ أى ثم أعطينا بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنة ، الرخاء والسعة .

﴿ **حتى عفوا** ﴾ أى حتى كثر عددهم ونموا ، إذ أن الرخاء مما يكون سببا فى كثرة النسل ، وبه تتم النعمة فى الدنيا على الموسرين ، ، ومن هذه الحسنات ما حدث لقوم هود من النعم التى بطروا بها ، وذكرهم هود بها فى قوله ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾[1].

وكذا ما قاله صالح لقومه ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوّأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾[2]

وقالوا ﴿ **قد مس آباءنا الضراء والسراء** ﴾ أى قالوا قولا يدل على أنهم لا يعتبرون بأحداث الزمان . قالوا : قد مس آباءنا من قبلنا ما يسوء وما يسر ، وما نحن إلا مثلهم ، فيصيبنا مثل ما أصابهم ، والدهر بالناس قلب ، وتلك عادة الدهر بأبنائه ، فلا الضراء عقاب على ذنب يرتكب ، ولا السراء جزاء على صالحات تكتسب .

وخلاصة هذا – أنهم لم يفهموا السنن التى وضعها المولى سبحانه فى أسباب السعادة والشقاء فى البشر ، والتى أرشد إليها قوله : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[3].

ومن ثم لم يتذكروا ولم يعتبروا حين ذكرهم رسولهم ، بل أعرضوا ونأوا ﴿ **فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون** ﴾ أى فكان عاقبة أمرهم أن أخذناهم بالعذاب فجأة ، وهم لا شعور لديهم بما سيحل بهم ، إذ هم قد جهلوا سنن الله التى وضعها فى شئون الاجتماع ، فلا هم اهتدوا إليها بعقولهم ، ولا هم صدقوا الرسل فيما أنذروهم به ، وجاء بمعنى الآية قوله تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا

(١) الآية ٦٩ من سورة الأعراف . (٢) الآية ٧٤ من سورة الأعراف . (٣) الآية ١١ من سورة الرعد .

عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾[1].

فالكافرون إذا مسهم الشر يئسوا وابتأسوا ، وإذا مسهم الخير بطروا واستكبروا وبغوا فى الأرض وأهلكوا الحرث والنسل ، والمؤمنون بالله وما جاء به رسله تكون الشدائد والمصايب تربية لهم وتمحيصا .

ولما ترك المسلمون هدى القرآن فى حكوماتهم ومصالحهم العامة ، فى أعمال الأفراد ، سلبهم الله ما أعطاهم من أنواع العلم والحكمة ، واتبعوا سنن من قبلهم شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ،فاتبعوا أهل الكتاب فى خرافاتهم وضلالهم وتقليد آبائهم وأجدادهم ، وطلب النفع والضر من دجالى الأحياء ، وقبور الأموات ، فغشيهم الجهل ، والنابتة منهم قلدوا الإفرنج فى الفسق والفجور ،وشرما وصلوا إليه فى طور فساد حضارتهم ، وقلدوهم حتى فيما لايوافق أحوالهم وبلادهم ومصالحهم .

وهكذا ضلت الفئتان عن هدى القرآن ، وأضاعتا ما بقى من ملك الإسلام .

توجيه وتحذير

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)

المفردات : ﴿ **بركات السماء** ﴾ : تشمل معارف الوحى العقلية ، ونفحات الإلهام الربانية ، والمطر ونحوه ، مما يوجب الخصب والخير فى الأرض ، وبركات الأرض : الخصب والمعادن ونحوهما ، و﴿ **البأس** ﴾ : العذاب :و﴿ **بياتا** ﴾ : أى وقت بيات وهو الليل ، و﴿ **الضحى** ﴾ : انبساط الشمس وامتداد النهار ويسمى به الوقت و﴿ **يلعبون** ﴾ : أى يلهون من فرط غفلتهم ، ﴿ **المكر** ﴾ : التدبير الخفى الذى يفضى بالممكوربه إلى مالا يحتسب ، وهداه السبيل وهداه إليه وهداه له:أى دل عليه وبينه له.

بعد أن بين عز اسمه أخذه أهل القرى الذين كذبوا رسلهم ، وكفروا بما جاءوا به وظلموا أنفسهم وظلموا الناس بما فتنوا فيه من أفانين الشرك والمعاصى ، كما حكى الله فى محاورتهم لرسلهم وإجابة الرسل لهم بما سلف ذكره .

ذكر هنا لأهل مكة ولسائر الناس ما كان يكون من إغداق نعمه تعالى عليهم ، لو آمنوا بالرسل ،

(١) الآية ٤٤ من سورة الأنعام .

واهتدوا بهديهم ، وعتبروا بسنة الله فى الأمم من قبلهم ، فإن سنته تعالى فى الأمم واحدة ، لا تبديل فيها ولا تحويل .

﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ .

أى ولو أن أهل مكة ومن حولهم من أهل القرى ، آمنوا بما دعاهم إليه خاتم الرسل صلوات الله عليه وسلم من عبادته تعالى وحده ، واتقوا ما نهاهم عنه من الشرك والفساد فى الأرض ، لم يعهدوها من قبل ، فتكون لهم أبواب نعم وبركات غير التى عهدوا فى صفاتها و نمائها وثباتها وأثرها فيهم ، فأنزل عليهم الأمطار النافعة التى تخصب الأرض ، وتكسب البلاد رفاهية العيش ، وآتيناهم من العلوم والمعارف وفهم سنن الكون ما لم يصل إلى مثله البشر من قبل .

والخلاصة — أنهم لو آمنوا لوسعنا عليهم الخير من كل جانب ، ويسرناه لهم بدل ما أصابهم من عقوبات بعضها من السماء وبعضها من الأرض .

والقاعدة التى أقرها القرآن الكريم أن الإيمان الصحيح ، ودين الحق ، سبب فى سعادة الدنيا ، ويشارك المؤمنين فى المادى منها الكفار كما قال تعالى : **﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء ﴾** أى إن ذلك الفتح كان ابتلاء واختباراً لحالهم ، وكان من أثره فيهم البطر والأشر ، بدلا من الشكر لمولى النعم ، فكان نقمة لا نعمة ، وفتنة لا بركة ، ولكن المؤمنين إذا فتح الله عليهم كان أثره فيهم شكر الله عليه ، والاغتباط بفضله ، واستعماله فى سبيل الخير دون الشر ، وفى الإصلاح دون الإفساد ، ويكون جزاؤهم على ذلك زيادة النعم فى الدنيا ، وحسن الثواب عليها فى الآخرة .

﴿ ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ أى ولكنهم لم يؤمنوا ولم يتقوا بل كذبوا فأخذناهم بما كانوا يعملون من أعمال الشرك والمعاصى التى تفسد نظم المجتمع البشرى .

وذلك الأخذ بالشدة أثر لازم لكسبهم المعاصى بحسب السنن التى وضعها المولى فى الكون ويكون فيه العبرة لأمثالهم إن كانوا يعقلون هذه النواميس العامة التى لا تبديل فيها ولا تغيير .

ثم عجب من حالهم وذكر من غفلتهم فقال : **﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ﴾** أى أجهل أهل مكة وغيرهم من أهل القرى الذين بلغتهم الدعوة ، والذين ستبلغهم ، ما نزل بمن قبلهم ، وغرهم ماهم فيه من نعمة ، فأمنوا أن يأتيهم عذابنا وقت بياتهم وهم نائمون ؟

﴿ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ﴾ أى أو أمن أهل القرى أن يأتيهم عذابنا فى وقت الضحى وهم منهمكون فى أعمالهم التى كأنها لعب أطفال ، لعدم الفائدة التى تترتب عليها .

والخلاصة — أنه تعالى خوفهم نزول العذاب بهم فى أوقات الغفلات ، إما حين النوم ، وإما وقت الضحى ، إذ يكثر فيهن تشاغل الناس باللذات .

﴿ **أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلاالقوم الخاسرون** ﴾ أى أكان سبب أمنهم إتيان بأسنا بياتا أو ضحى وهم غافلون عن مكر الله بهم بإتيانهم بأسنا من حيث لا يحتسبون ولا يقدرون ؟ إن كان الأمر كذلك فقد خسروا أنفسهم ، فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

وإذا كانت الآية ناطقة بأن أمن الصالح المتعبد من مكر الله جهل يورث الخسران ، فما بال من يأمن مكر الله وهو مسترسل فى معاصيه اتكالا على عفوه ومغفرته ورحمته ؟ وقد كان النبى ﷺ يكثر الدعاء بقوله : « اللهم يامقلب القلوب والأبصار ثبت قلبى على دينك »[١]، وذكر سبحانه أن الراسخين فى العلم يدعونه فيقولون : ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ﴾[٢].

وكما أن الأمن من مكر الله خسران ومفسدة ، فاليأس من رحمة الله كذلك ، فكلاهما مفسدة تتبعها مفاسد .

﴿ **أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون** ﴾ .

أى أكان ما ذكر من آياتنا مجهولا لأهل القرى،وأنه هو سنة الله ، ولم يتبين لأولئك الذين يرثون الأرض من بعد أهلها قرنا بعد قرن ، وجيلا بعد جيل ، أن شأننا فيهم كشأننا فيمن سبقهم فهم خاضعون لمشيئتنا . فلو نشاء أن نعذبهم بسبب ذنوبهم لعذبناهم ، كما أصبنا أمثالهم ممن قبلهم بمثلها وأهلكناهم كما أهلكناهم ، فإن لم نهلكهم بالعذاب نطبع على قلوبهم فلا يسمعون الحكم والنصائح سماع تفقه وتدبر ﴿ وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾[٣] إذ أن قلوبهم قد ملئت بمعتقدات وشهوات تصرفها عن غيرها فجعلهم من ﴿ الأخسرين أعمالاً * الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾[٤].

وقد كان فى مثل هذا القصص عبرة للمسلمين أيما عبرة ، فكتابهم يقص عليهم قصص الأمم قبلهم ، ويبين لهم أن ذنوب الأمم لا تغفر كذنوب الأفراد ، وسنته فيها لا تتبدل ولا تتحول ، فكان عليهم أن يتقوا كل ما قصه من ذنوب الأمم التى هلك بها من قبلهم ، وزالت بهم الدولة لأعدائهم ، ولكنهم قصروا فى وعظ الأمة بها ، وإنذارهم عاقبة الإعراض عنها وترك الإعراض عن تدبرها ، وكان عليهم أن يعتبروا بقول النبى ﷺ : « شيبتنى هود وأخواتها »[٥] وقوله تعالى : ﴿ أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين * أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ﴾[٦].

---

(١) أخرجه الترمذى فى القد (٧) وفى الدعوات (١٢٤،٨٩) . وابن ماجه فى الدعاء (٢) . والإمام أحمد فى (٤١٨،١٨٢:٤) وفى (٣١٥،٣٠٢،٢٩٤،٢٥١،٩١:٦) .

(٢) الآية ٨ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ١٠١ من سورة يونس .

(٤) الآيتان ١٠٣ ، ١٠٤ من سورة الكهف .

(٥) أخرجه الترمذى فى (تفسير سورة ٦:٥٦) .

(٦) الآيتان ٦٩،٦٨ من سورة المؤمنون .

عبرة وعظة

﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

المفردات : ﴿ **العهد** ﴾ : الوصية والوصية تارة يراد بها إنشاؤها وايجادها وأخرى يراد بها مايوصَى به ويقال عهدت إليه أى وصيته بفعله أو حفظه وهو إما أن يكون بين طرفين وهو المعاهدة وإما من طرف واحد بأن يعهد إليك بشيء أو تلزم بشيء: و﴿ **الميثاق** ﴾: هو العهد الموثق بضرب من ضروب التوكيد . قال الراغب : عهد الله تارة يكون بما ركزه فى عقولنا وتارة يكون بما أمرنا به فى الكتاب وألفه رسله وتارة بما نلتزمه وليس بلازم فى أصل الشرع كالنذور وما يجرى مجراها أ. هـ ﴿ **والفسوق** ﴾ : الخروج عن كل عهد فطرى وشرعى بالنكث والغدر وغير ذلك من المعاصى ووجدنا الأولى بمعنى : ألفينا والثانية بمعنى : علمنا .

هذا خطاب وجه إلى النبى ﷺ تسلية وتثبيتاً له على الصبر على دعوته ، بتذكيره بما فى قصص أولئك الرسل مع أقوامهم ، من وجوه العبر والمواعظ ، وبيان أن ما يلاقيه منهم من ضروب العناد والاستكبار والإيذاء ليس بدعاً بين الأمم ، بل ذلك طريق سلكه كثير من الأمم المجاورة لهم ، كعاد وثمود وأصحاب الأيكة ، وغيرهم ممن تقدم ذكرهم ، وقصصهم يدور على ألسنتهم بحكم الجوار لهم ، وطروق أرضهم فى حلهم وترحالهم فى رحلتى الشتاء والصيف .

﴿ **تلك القرى نقص عليك من أنبائها** ﴾ أى تلك القرى التى بعد عهدها ، وطال الأمد على تاريخها ، وجهل قومك حقيقتها ، نقص عليك بعض أنبائها مما فيه العبرة لقومك ولك .

والمراد بها القرى المعهودة فى هذا القصص ، والحكمة فى تخصيصها بالذكر أنها كانت فى بلاد العرب وما جاورها ، وكان أهل مكة وغيرهم ممن وجهت إليهم الدعوة أول الإسلام يتناقلون بعض أخبارها ، وهى جميعا طبعت على غرار واحد فى تكذيب الرسل ، والمماراة فيما جاءوا به من النذر ، فحل بهم النكال بعذاب الاستئصال فالعبرة فى جميعها واحدة ، ومن ثم فصلها من قصة موسى الآتية لأن قومه آمنوا به ، وإنما كذب فرعون وملؤه فعُذِّبوا .

﴿ **ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل** ﴾

أى ولقد جاء أهل تلك القرى رسلهم بالبينات الدالة على صدق دعوتهم ، وبالآيات التى اقترحوها

عليهم لإقامة حجتهم ، فجاء كل رسول قومه بما أعذر به إليهم ، ولكن لم يكن من شأنهم أن يؤمنوا بعد مجيء البينات بما كذبوا به من قبل مجيئها ، حين بدء الدعوة إلى التوحيد ، وعبادة الله وحده ، بما شرعه ، وترك الشرك والمعاصى .

ذاك إذن شأن المكذبين عناداً أو تقليداً ، أن يصروا على التكذيب بعد إقامة البينة ، إذ لا قيمة لها فى نظرهم فهم إما جاحدون معاندون ضلوا على علم ، وإما مقلدون يأبون النظر والفهم .

وفى معنى الآية قوله فى سورة يونس ﴿ ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين ﴾[(١)]

﴿ **كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين** ﴾ أى مثل ما ذكر عن عناد هؤلاء وإصرارهم على الضلال ، وعدم تأثير الدلائل والبينات فى عقولهم ، يكون الطبع على قلوب من ران الكفر على قلوبهم ، وصار العناد ديدنهم ، سنة الله فى أخلاق البشر وأحوالهم ، إذ هم يأنسون بالكفر وأعماله ، وتستحوذ أوهامه على عقولهم ، ويملأ حب الشهوات أفئدتهم ، فلا يقبلون بحثا ، ولا فيما هم عليه نقدا ، فما مثلها إلا مثل السكة التى طبعت على طابع خاص أثناء صهر معدنها . وإذابته ، ثم جمدت ، فلا تقبل بعد ذلك نقضا ، ولا شكلا آخر .

وفى الآية تسلية للنبى ﷺ ، وإعلام له بأن أهل مكة قد وصلوا إلى حال من الجمود والعناد وفساد الفطرة ، وإهمال النظر والعقل ، ولا تؤثر فيها البينات وإن وضحت ، ولا الآيات وإن اقترحت .

وقد كانوا يقترحون عليه الآيات وكان يتمنى أن يؤتيه الله ما اقترحوا منها ، حرصا على إيمانهم ، حتى يبين الله له طباعهم وأخلاقهم ليعرف مبلغ أمرهم فى قبول دعوته ، وأنه لا أمل له فيهم بحال .

﴿ **وما وجدنا لأكثرهم من عهد** ﴾ أى وما وجدنا لأكثر أولئك الأقوام عهدا مّا يفون به ، سواء إن كان عهد الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، إذ قد فطر الله أنفس البشر على الشعور بسلطان غيبى ، فوق جميع القوى ، وعلى إيثار الحسن واجتناب غيره . وعلى حب الكمال وكراهة النقص . أم كان العهد الذى أخذه ربهم عليهم وهم فى الأصلاب ، أنه ربهم ومليكهم ، وأنه لا إله إلا هو ، وأقروا بذلك ، وشهدوا على أنفسهم به ، وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم ، وعبدوا معه غيره بلا دليل ولا حجة من عقل ولا شرع ، وقد جاء فى صحيح مسلم « يقول الله إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم» [(٢)] وفى الصحيحين « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » [(٣)]

(١) الآية ٧٤ من سورة يونس .

(٢) أخرجه مسلم فى الجنة (٦٣) . والإمام أحمد فى (٤:١٦٢) .

(٣) أخرجه البخارى فى الجنائز (٨٠) و: تفسير (سورة ٣٠ :١) وفى القدر (٣) . وأخرجه مسلم فى القدر (٢٢،٢٣،٢٤) . والإمام أحمد فى (٢:٣١،٣٤٦) .

﴿ وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ أى وإننا وجدنا أكثرهم خارجين على كل عهد فطرى ، وشرعى وعرفى .

فهم ناكثون غادرون للعهود مرتكبون أفانين للمعاصى وفى التعبير بالأكثر إيماء إلى أن بعضهم قد آمن والتزم كل عهد عاهده الله عليه أو تعاهد عليه مع الناس وهذا من دأب القرآن فى تحقيق الحقائق على وجه الصدق بحيث لا تشوبها شبهات المبالغة بما يسلب أحدا حقه أو يعطى أحداً حق غيره .

قصة موسى عليه السلام

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ * وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

المفردات : ﴿ **موسى** ﴾ : هو موسى بن عمران (بكسر العين) وأهل الكتاب يقولون : (عَمرام) بفتح أوله وإنما سمى موسى لأنه ألقى بين ماء وشجر فالماء بالقبطية (مو) والشجر (سى) وذلك أن أمه وضعته بعد ولادته فى تابوت . (صندوق) وأقفلته إقفالا محكما وألقته فى (نهر النيل) خوفا من فرعون وحكومته أن يعلموا به فيقتلوه إذ كانوا يذبحون ذكور بنى إسرائيل عند ولادتهم ويتركون نساءهم . ﴿ **وفرعون** ﴾ : لقب لملوك مصر كلقب قيصر لملوك الروم وكسرى لملوك الفرس . والراجح لدى كثير ممن يعنون بالتاريخ المصرى القديم أن فرعون موسى هو الملك منفتاح وكان يلقب بسليل الإله (رع) أى الشمس وقد كتب بجانب هيكله الذى بدار الآثار المصرية الآية الكريمة ﴿ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ﴾[١] و﴿ **الملأ** ﴾ : أشراف القوم وظلموا بها : جحدوا بها وكفروا و ﴿ **حقيق** ﴾ : أى جدير وخليق به . يقولون أنت حقيق بكذا كما يقول : أنت جدير به وخليق به ﴿ **والنزع** ﴾ : إخراج الشيء من مكانه وتأمرون : أى تشيرون فى أمره . يقولون : مرنى بكذا على معنى : أشر على وأدل برأيك . ﴿ **وأرجئ** ﴾ : أى أرجئ أمره وأخره ولا تفصل فيه بادى الرأى و﴿ **فى المدائن** ﴾ : أى مدائن ملكك و﴿ **حاشرين** ﴾ : أى جامعين سائقين السحرة منها ﴿ **عليم** ﴾ : أى بفنون السحر ماهو فيها . ﴿ **لقف الشيء وتلقفه** ﴾ : تناوله بحذق وسرعة ﴿ **والمأفوك** ﴾ : المصروف عن وجهه الذى يحق ان يكون عليه ومن ثم يقال للرياح التى عدلت عن مهابها مؤتفكة كما قال : ﴿ وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة ﴾[٢] وقال : ﴿ قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾[٣] أى يصرفون عن الحق فى الاعتقاد إلى الباطل . وعن الصدق فى المقال إلى الكذب وعن الجميل فى الفعل إلى القبيح فالإفك يكون بالقول كالكذب وقد يكون بالفعل كعمل سحرة فرعون وانقلبوا عادوا . وصاغرين أى أذلة بما رزئوا به من الخذلان والخيبة وألقى السحرة ساجدين : أى خروا سجداً لأن الحق بهرهم واضطرهم إلى السجود . ﴿ **المكر** ﴾ : صرف الإنسان عن مقصده بحيلة . وهو نوعان محمود ويراد به الخير ومذموم يقصدون به الشر . وتقطيع الأيدى والأرجل من خلاف ان تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى والعكس بالعكس . والصلب الشد على خشبة ونحوها وشاع فى تعليق الشخص بنحو حبل فى عنقه ليموت وهو المتعارف اليوم ونقمت الشيء : إذا انكرته إما باللسان وإما بالعقوبة كما قال تعالى : ﴿ وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ﴾[٤] ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله ﴾[٥] و﴿ **أفرغ علينا** ﴾ : أى أفض علينا صبرا يغمرنا كما يفرغ الماء من القرب ..

هذه هى القصة السادسة من قصص الأنبياء التى ذكرت فى هذه السورة ، وفيها من الإيضاح والتفصيل مالم يذكر فى غيرها ، لأن معجزات موسى كانت أقوى من معجزات غيره ممن سبق ذكرهم ، وجهل قومه كان أفحش .

(١) الآية ٩٢ من سورة يونس .
(٢) الآية ٩ من سورة الحاقة .
(٣) الآية ٣٠ من سورة التوبة .
(٤) الآية ٧٤ من سورة التوبة .
(٥) الآية ٨ من سورة البروج .

وقد ذكرت قصته فى عدة سور مكية بين مطولة ومختصرة ؛ وذكر اسمه فى سور كثيرة زدات على مائة وثلاثين مرة ، وسر هذا أن قصته أشبه قصص الرسل بقصص النبى ﷺ ، إذ أنه أوتى شريعة دينية ونبوية .

وكون الله تعالى به أمة عظيمة ، ذات ملك ومدنية .

وقصة موسى دار فيها الصراع العنيف بين الحق والباطل ، بين المعجزة والسحر ، بين الإيمان والكفر ، بين كبر فرعون وتواضع موسى ، بين ادعاء الألوهية وحقيقة النبوة ، بين ما كان عليه فرعون من الزيف والطيش والحماقة والسفاهة والنزق ، وبين ما كان عليه موسى من الخلق الرفيع والحلم الجميل والتمسك بكلمة الله ، والصفح والصبر وقوة العزيمة والإصرار على الواحدنية ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك ياموسى مسحورا * قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يافرعون مثبورا ﴾[1] .

فانظر البوْن الشاسع ، والفرق البعيد المدى ، بين منطق الحق وتهريج الباطل ، فالحق أبلج ، والباطل لجلج .

ثم تأمل معى هذا الحوار الذى دار بين عدو الله فرعون ، وكليم الله موسى ، عندما عرض موسى عليه الحق لما أمره الله تعالى بقوله ﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين . قوم فرعون ألا يتقون * قال ربِّ إنى أخاف أن يكذبون * ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل إلى هارون * ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون ، قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون * فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين * أن أرسل معنا بنى إسرائيل * قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين * وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين * قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين * ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين * وتلك نعمة تمنها علىّ أن عبدت بنى إسرائيل * قال فرعون وما رب العالمين * قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين * قال لمن حوله ألا تستمعون * قال ربكم ورب آبائكم الأولين * قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون * قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون * قال لئن اتخذت إلٰها غيرى لأجعلنك من المسجونين * قال أو لو جئتك بشئ مبين * قال فأت به إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين * ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين * قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ﴾[2] .

فهذه صورة واضحة المعالم ، بينة الحقائق ، جلية فى معانيها ومبانيها ومراميها ومغازيها ، تعطيك إلى أى حد كان صلف فرعون ، وهو يتمرغ فى ظلمات كبره ، بينما موسى فى ثباته كأنه الجبال الشم ، وفى هدوئه كأنه الرواس الشامخات ، إن الحق هو الحق ولو تغير له أهل الأرض جميعاً ، إن الشمس فى عليائها ، فهل

(١) الآيتان ١٠١، ١٠٢ من سورة الإسراء .

(٢) الآيات ١٠-٣٥ من سورة الشعراء .

يستطيع أحد أن ينفخ فى الشمس فيطفئها ، إنه أطهر من السحابة فى سمائها ، وأنصع من ماء الغمام ، إنه القمر فى نوره الوضاء ، يبدد الغياهب ، ويمحو فلول الدجى ، إنه النهار إذا تجلى ، فهل يستطيع أحد أن ينكر ضوء النهار ، إلا أن يكون قد ختم الله على قلبه وسمعه ، وجعل على بصره غشاوة .

فرعون يسأل وفى قرارة نفسه لا يريد الوصول إلى الحق ، إنما يريد الجدل العقيم ، والهروب من مجابهة النبوة ﴿ **ألم نربك فينا وليدا** ﴾ ﴿ **وما رب العالمين** ﴾ ﴿ **إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون** ﴾ ﴿ **لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين** ﴾ .

فيرد موسى بكلمات كأنهن الياقوت والمرجان ﴿ **أو لو جئتك بشىء مبين** ﴾

إن الحق ليهرب من مجابهة الباطل ، لأن الحق ثابت الأركان ، وطيد البنيان ، لا يؤثر فيه كر الزمان ، مهما تباعدت أيامه ، واختلفت الناس فيه من حيث المشارب والنوازع والمذاهب والملل والنحل ،لأن جوهره أصفى من الصفاء . و قد قال أهل الحق : حقائق الأشياء ثابتة . والعلم بها متحقق . كما قالوا : حقيقة الشىء ما به الشىء هو هو ، فهل يستطيع أحد أن يسلب الشىء عن ذاته .

لقد طار صواب فرعون ، وهو يرى الحقائق دامغة والبراهين ساطعة ، والحجج قاطعة ، لقد قال لهامان ﴿ ياهامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب * أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا ﴾[1] .

قال تعالى ﴿ وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصُدَّ عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب ﴾

إن البعوضة التى قالت للنخلة وقد سقطت عليها أيتها النخلة استمسكى فإننى راحلة عنك ، قالت النخلة أيتها البعوضة : والله ما شعرت بك حين سقطت علىّ فكيف وأنت راحلة عنى ، إن قافلة الحق تسير والكلاب تعوى ، فهل يضر السحاب نبح الكلاب ، ولو تحول الناس جميعا إلى كناسين ليثيروا التراب على السماء فسوف يثيرونه على أنفسهم ، وتبقى السماء هى السماء . ضاحكةَ السن ، بسامة المحيا .

ويزداد فرعون صلفا وتيهاً فيعلن على قومه الذين استخفهم فأطاعوه ﴿ ياأيها الملأ ماعلمت لكم من إله غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين ﴾[2] قال تعالى ﴿ واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون ﴾[3]

وكان لابد من كلمة الفصل ولا يملكها إلا عالم الغيب والشهادة الذى خلق السموات والأرض بالحق قال تعالى : ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين * وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون * وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾[4]

(١) الآية ٣٦ ، ٣٧ من سورة غافر .
(٢) الآية ٣٨ من سورة القصص .
(٣) الآية ٣٩ من سورة القصص .
(٤) الآيات ٤٠-٤٢ من سورة القصص .

وفى سورة النازعات يحدثنا الكتاب الكريم عن كبرياء فرعون وصلفه وطيشه ونزقه : ﴿ هل أتاك حديث موسى * إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى * اذهب إلى فرعون إنه طغى * فقل هل لك إلى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى * فأراه الآية الكبرى * فكذب وعصى * ثم أدبر يسعى فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخرة والأولى * إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾[1]

ومع هذا الإجرام البالغ المقيت ، والتعصب الأعمى للباطل والجبروت ، والقسوة من فرعون يقول الله لموسى وهارون : ﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى * اذهبا إلى فرعون إنه طغى * فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى ﴾[2].

قال قتادة رضى الله عنه وهو يقرأ هذه الآيات : يارب ما أحلمك وماأكرمك ، وماأعظمك ، إذا كان هذا حكمك بفرعون الذى قال:﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾ ، فكيف يكون حكمك بعبد قال : سبحان ربى الأعلى ، وإذا كان هذا حلمك بفرعون الذى قال ﴿ **ما علمت لكم من إلّه غيرى** ﴾ فكيف يكون حلمك بعبد قال : لا إلّه إلا الله سبحانك أنت الحليم الكريم ، الرحيم الحليم لا ينقصك سائل . ولا يشغلك شاغل .

أنت الذى تهب الكثير وتجبر الـ ـقلب الكسير وتغفر الزلات
وتقول هل من تائب مستغفر أو سائل أقضى له الحاجات

لقد أيد الله تعالى موسى بالمعجزات ، وخوارق العادات ، وبالآيات البينات ، بل وأجراها على يديه قبل أن يذهب إلى الطاغية العنيد ، والجبار المستكبر ، اقرأ معى هذا المشهد من سورة طه : ﴿ وهل أتاك حديث موسى * إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما أتاها نودى ياموسى * إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى * وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى * إننى أنا الله لا إلّه إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى * إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى * فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى * وما تلك بيمينك ياموسى . قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى * قال ألقها ياموسى * فألقاها فإذا هى حية تسعى * قال . خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى * لنريك من آياتنا الكبرى * اذهب إلى فرعون إنه طغى * قال رب اشرح لى صدرى * ويسرلى أمرى * واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى * واجعل لى وزيرا من أهلى * هارون أخى * اشدد به أزرى * وأشركه فى أمرى * كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا * إنك كنت بنا بصيرا * قال قد أوتيت سؤلك ياموسى ﴾[3].

بهذا اليقين ومنطق الحق المبين ، انطلق موسى إلى فرعون ، وبتلك الآيات البينات والمعجزات وخوارق العادات ذهب موسى إلى رجل غره جهله ، فظن أنه المعبود ، وأنه الإلّه ، وأنه الرب ، فعاث فى الأرض

(١) الآيات ١٥-٢٦ من سورة النازعات . (٢) الآيات ٤٢-٤٤ من سورة طه . (٣) الآيات ٩-٣٦ من سورة طه .

فسادا ، وملأ أرجاءها ظلماً وعنادا . وغرته كبرياؤه فنادى ﴿ أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون * أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين * فلولا أُلقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين * فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين * فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين * فجعلناهم سلفا ومثلاً للآخرين ﴾[١].

إلى هذا الطاغية توجه موسى على بركة الله ، قال تعالى ﴿ **ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملأه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ .

أى بعثنا موسى بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ﴿ **إلى فرعون وملأه** ﴾ ، وذلك لأن استبداد فرعون ومعه أشراف قومه صيَّره ذلك الاستبداد إلى حاكم لايعرف رأياً إلا رأيه ، ولا يُسمع إلا لقوله ، وفى القرآن الكريم ما يدل على ذلك ﴿ قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى ﴾[٢].

وأقوى شيء يدمر المجتمع الاستبداد بالرأى ، قال تعالى فى شأن فرعون : ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود * واتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ﴾[٣].

ومن ثم فقد جعل الله تعالى الشورى صفة من صفات المؤمنين ، قال تعالى ﴿ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ﴾[٤].

وليست الشورى فى الإسلام ترفاً عقلياً ، أو ملهاة يتلهى بها الناس ، إنما الشورى ملزمة ، وقد أمر الله تعالى رسوله بها عقب انصرافه من غزوة أحد ، وفيها من المحن ما فيها قال تعالى : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾[٥] وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأصحابه ذات يوم وقد قال له أحدهم : اتق الله ياعمر . فغضب بعض الجالسين كيف يقول لعمر هذا . فقال لهم عمر : « لا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نقبلها » ويرحم الله صاحب العمرية إذ يقول

يارافعاً راية الشورى وحارسها ... جزاك ربك خيراً عن محبيها
رأى الجماعة لا تشقى البلاد به ... رغم الخلاف ورأى الفرد يشقيها

والناس بخير ما تناصحوا ، قال الصادق المعصوم صلوات ربى وسلامه عليه : « الدين النصيحة قلنا : لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » .

وقد كان للخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز مستشار خاص قال له عمر : إذا رأيتنى ضللت الطريق فخذ بمجامع ثوبى وهزنى ، وقل لى اتق الله ياعمر . فإنك ستموت .

---

(١) الآيات ٥١-٥٦ من سورة الزخرف .
(٢) الآية ٣٩ من سورة غافر .
(٣) الآيتان ٩٨،٩٩ من سورة هود .
(٤) الآية ٣٨ من سورة الشورى .
(٥) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران .

وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول رحم الله امرءاً أهدى إلىّ عيوبى .

إن فرعون لما طغى وبغى صير شعبه كماً مهملا ، فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين ، لقد أرسل الله إليه موسى بآيات بينات ، ومعجزات واضحات ، منها اليد والعصا .

قوله تعالى ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ أى كانت عاقبة أمرهم عجيبة وغريبة ، وعلى رأس المفسدين فرعون ، فالقيادة قدوة ، والسمكه تفسد من رأسها ﴿ إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين * ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾[١] .

كيف يعلو الإنسان فى الأرض وأوله نطفة قذرة وآخره جيفة قذرة ، وهو بين هذا وذاك يحمل فى جوفه العذرة ، تنتنه عرقة ، وتؤذيه بقة ، وتقتله شرقة .

وتأمل معى كيف أن الله يمهل ولا يهمل ، وكيف صبر على فرعون فلم يرسل له نبياً عندما طغى فى الأرض ، بل أوحى إلى أم نبى أن ترضع وليدها ، فإذا خافت عليه فلتلقه فى اليم يأخذه عدو الله وعدو لهذا النبى .

إلهنا ما أحلمك ، ما أعظمك ، ما أكرمك ، ما أصبرك.إن الله لا يعجل كعجلة أُحدكم إن الله يملى للظالم حتى إذا أُخذه لم يفلته ، اقرأوا إن شئتم : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة أن أخذه أليم شديد * إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود * وما نؤخره إلا لأجل معدود ﴾[٢].

نعم لا أحد أصبر من الله . وسبحان الله إذ يقول : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين * فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين * وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون * وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين * وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ﴾[٣].

إن يد الله تعمل فى الخفاء ، فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة ، فليس لأحد أن يستعجلها ، أو يقترح عليها ، وسبحانك ربى إذ تقول ﴿ وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه

(١) الآيات ٤-٦ من سورة القصص .
(٢) الآيات ١٠٢-١٠٤ من سورة هود .
(٣) الآيات ٧-١١ من سورة القصص .

لكم وهم له ناصحون * فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون*ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلماً وكذلك نجزى المحسنين ﴾[١]

دع المقادير تجرى فى أعنتها ولا تبيتن إلا خالى البال
ما بين طرفة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال

وسبحان القائل فى شأن موسى : ﴿ ولقد مننا عليك مرة أخرى * إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى * أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى * إذتمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى . واصطنعتك لنفسى ﴾[٢] .

قوله تعالى ﴿ **وقال موسى يا فرعون إنى رسول من رب العالمين * حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل** ﴾

هذا إقرار صادق من نبى صادق ، من إلّه صادق ، فرسالة موسى ، أمر ثابت معلوم من الدين بالضرورة ، وقوله : ﴿ **من رب العالمين** ﴾ إخبار عن أن الله جل جلاله هو رب الأكوان كلها، لا رب سواه وما فرعون فى ملك الله إلاهباءة فى شعاع الشمس المتسلل من حنايا النافذة ، ويوم يغتر بنفسه فما هو إلا بعوضة وهنانة تحاول أن تحجبنا بجناحيها ضوء الشمس ، أو نور القمر .

يامدعى الكبر إعجابا بصورته
انظر خلاك فإن النتن تثريب

لو فكر الناس فيما فى بطونهم
ما استشعر الكبر شبان ولا شيب

يا ابن التراب ومأكول التراب غدا
أقصر فإنك مأكول ومشروب

إن موسى حقيق وجدير وأهل على ألا يقول على الله إلا الحق ، فالصدق من أخص خصائص الأنبياء ، والكذب عليهم محال ، فإنهم يبلغون عن الله ، ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله .

وقد أخبر الله تعالى عن خاتمهم ﷺ بقوله ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين ﴾[٣].

(١) الآيات ١٢-١٤ من سورة القصص .
(٢) الآيات ٣٧-٤١ من سورة طه .
(٣) الآيات ٤٤-٤٧ من سورة الحاقة .

إن الله تعالى أخبر موسى عندما أرسله بقوله : ﴿ **اذهب إلى فرعون إنه طغى** ﴾ لذلك فإن موسى قرن دعوته بالبينة ، فقال : ﴿ **قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل** ﴾ وذلك كقوله تعالى : ﴿ فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى . إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾[1] وأخذ فرعون يسأل وموسى يجيب قال :

﴿ فمن ربكما ياموسى * قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى * قال فما بال القرون الأولى * قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولاينسى * الذى جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى * كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى * منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾[2]

ماذا قال فرعون لموسى قال ﴿ **إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين** ﴾ فانظر إلى مدى الغلظة والفظاظة موسى يقول له حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق ، وهو يقول له إن كنت من الصادقين ، إنه الكبر المدمر ، والزلزال العاصف ، الذى يجعل صاحبه ينسى ربه ﴿ **فألقى موسى عصاه فإذا هى ثعبان مبين** ﴾ ظاهر للعيان واضح وضوح الشمس ، وهى تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية ، ﴿ **ونزع يده** ﴾ أى من جيبه ﴿ **فإذا هى بيضاء** ﴾ اللون تتلألأ وتتألق كأنها درة فى تاج الوقار أمام الناظرين .

وكان على فرعون أن يقر ويذعن ، ويخضع لله ، ولكن أهل الباطل لا يمكن أن يسلموا إلا إذا رأوا العذاب الأليم ، فيضطرون للتسليم على رغم أنوفهم تسليماً ظاهرياً حتى تحين لهم الفرصة ، قال تعالى : ﴿ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين * آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين . فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾[3]

﴿ **قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون** ﴾

أى قال الملأ من قوم فرعون لفرعون : إن هذا لساحر عليم فقال لهم فرعون مصدقاً على كلامهم : إن هذا لساحر عليم ، كما جاء فى سورة الشعراء ﴿ قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ﴾ .

ولم يكن هذا سحرا ، فإن المعجزات لاتتفق مع السحر ، فالمعجزة أمر خارق للعادة ، يظهره الله على أيدى الأنبياء تصديقا لهم فيما جاءوا به عند التحدى ، مع جميع الخلق على أن يأتوا بمثله ، وقد تكون

(١) الآيات ٤٧، ٤٨ من سورة طه .
(٢) الآيات ٤٩-٥٥ من سورة طه .
(٣) الآيات ٩٠-٩٢ من سورة يونس .

المعجزة تركته ، كترك إحراق النار لإبراهيم ، فإنها لم تمسه بسوء مع وجود المقتضى للإحراق ، وزوال المانع ﴿ قلنا يا نار كونى برداً وسلاما على إبراهيم * وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ﴾[١] .

فقد نزع الله منها الحرارة والإحراق ، وأبقاها على الإضاءة والإشراق .

وقد تكون المعجزة فعلية كمعجزات موسى وعيسى ، وقد تكون قولية كالقرآن الكريم : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾[٢]

أما السحر فإنه أوهام فى العقل ، وتخيلات فى الحس ، قال تعالى ﴿ **فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى** ﴾ قال جل شأنه : ﴿ **فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم** ﴾ .

يقول الشيخ المراغى فى تفسيره

أنواع السحر ثلاثة :

١ - ما يعمل بأسباب طبيعية من خواص المادة معروفة للساحر مجهولة عند من يسحرهم بها كالزئبق الذى قيل إن سحرة فرعون وضعوه فى حبالهم وعصيهم .

ولو ادعى علماء الطبيعة والكيمياء فى هذا العصر السحر فى أواسط إفريقيا وغيرها من البلاد التى يروج فيها السحر لأروهم العجب العجاب ، من غرائب الكهرباء وغيرها ، حتى لو ادعوا فيهم الألوهية لخضعوا لهم فضلا عن النبوة والولاية .

٢ ـ الشعوذة التى ملاك أمرها خفة اليدين فى إخفاء بعض الأشياء ، وإظهار بعض ، وإراءة بعضها بغير صورها ، وغير ذلك مما هو معروف فى هذه البلاد وغيرها من البلاد المتمدينة .

٣ - ما يكون مداره على تأثير الأنفس ذات الإرادة القوية فى الأنفس الضعيفة ، القابلة للأوهام والانفعالات ، التى يسميها علماء النفس (بالأنفس الهستيرية) وأصحاب هذا النوع يستعينون على أعمالهم بأرواح الشياطين ، ومنهم من يكتب الأوفاق والطلسمات للحب والبغض ، إلى نحو ذلك .

ومن ذلك ما استحدث فى هذا العصر من التنويم المغناطيسى .

وعلى الجملة فالسحر صناعة تتلقى بالتعليم ، كما ثبت بنص الكتاب الكريم ، وبالاختبار الذى لم يبق فيه شك بين العلماء فى هذا العصر . أهـ

وأعجب معى كيف قال فرعون لمن حوله : ﴿ **فماذا تأمرون** ﴾ ومتى كان المستبدون بالرأى يطلبون الأمر والمشورة من غيرهم ، ألم يقل فرعون ﴿ **ما أريكم إلا ما أرى** ﴾ فلماذا لجأ إليهم الآن يطلب منهم

(١) الآيتان ٦٩، ٧٠ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية ٨٨ من سورة الإسراء .

المشورة ، ولكنها عادة المستكبرين عندما تحيط بهم الشدائد ، وتحكم الحبال على رقابهم ، ترى الأسد الهصور ينقلب نعامة . وترى النمر الجسور يصير فأراً .

﴿ قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين * يأتوك بكل ساحر عليم ﴾ .

أى أخر النظر فى أمره حتى نبارزه بعلمائنا فى السحر ، فأرسل فرعون رجال شرطته فى مدائن مصر ، وجاءوا برجال السحر قال تعالى فى سورة الشعراء ﴿ فجمع السحرة لميقات يوم معلوم * وقيل للناس هل أنتم مجتمعون*لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾[1] .

فانظر إلى تحيز الناس إلى الباطل ، وكيف تحيزوا لسحرة فرعون ولم يقولوا من باب الإنصاف لعلنا نتبع الفريق الغالب ، حتى يكونوا فى حكمهم عادلين ، ولكن الناس على دين ملوكهم ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شىء قدراً .

﴿ وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم لمن المقربين ﴾

لقد اجتمعوا بفرعون فى جلسة خاصة . والباطل دائما يسعى إلى الدنيا ولا يعرف الطريق إلى الحق ، لقد كان كل هدفهم عرض الدنيا فطمأنهم سيدهم على ذلك ، وزادهم أنهم إن كسبوا المباراة فسيقربهم إليه ، ويخلع عليهم الأوسمة والنياشين والمناصب .

واجتمع الناس لميقات يوم معلوم وجاء الموعد المضروب ،وليس هناك عبارة تشرح المقام ، أفضل مما ذكره الله تعالى فى قوله الكريم وقرآنه العظيم ﴿ ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى * قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى * فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى * قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى * فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى*قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى * فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى * قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى * فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى * قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى * قال بل ألقوا فاذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى * فأوجس فى نفسه خيفة موسى * قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى * فألقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى * قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى*قالوا لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا*إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى*إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى * ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات

---

(١) الآيات ٣٨-٤١ من سورة الشعراء .

فأولئك لهم الدرجات العلى*جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى ﴾(١).

وفى سورة الأعراف ﴿ **قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين** ﴾ وهذا يدل على مدى ثقتهم فى باطلهم ، إنهم يخيرون موسى فى الإلقاء .

﴿ **قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم** ﴾ أى أوقعوا فيهم الرهبة والفزع

﴿ **وجاءوا بسحر عظيم** ﴾ فى نظر العيون التى شغلتها التخيلات الباطلة ، ولكن الحق أقوى وأبقى ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

قال تعالى : ﴿ **وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون** ﴾ .

فاعجب معى لعصاً تفتح فاها بعدما تحولت ثعبانا مبيناً ، فهى فى منظرها ثعبان ، وفى خفتها كالحية . وفى هولها كأنها جان ، ابتلعت كل ما يأفكون وما يأتون به من باطل السحر .

﴿ **فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون** ﴾ وفى كلمة ﴿ **وقع** ﴾ ما يدل على أن الحق كأن جسم ثقيل له وزنه وأثره ، وليس بالسفساف التافه .

﴿ **فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين * وألقى السحرة ساجدين*قالوا آمنا برب العالمين*رب موسى وهارون** ﴾ .

وذلك لما استقر فى يقينهم من الحق المبين ، ولما رسخ فى قلوبهم من أن عصا موسى ليست سحراً ، إنما هى حقيقة واقعة ، هنالك غضب فرعون وانتفخت أوداجه ، لقد كانوا فى الصباح يقسمون بعزته ويقولون ﴿ **بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون** ﴾ فأمسوا بعدما ظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون ، أمسوا يقسمون بالحى القيوم . ويقولون ﴿ **والذى فطرنا فاقض ما انت قاض** ﴾ لقد كانوا فى الصباح سحرة كفرة ، فأمسوا عند الله شهداء بررة .

﴿ **وقال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون * لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين** ﴾

فماذا قالوا له ؟قالوا بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : ﴿ **إنا إلى ربنا منقلبون** ﴾ فإن النهاية أننا إلى الله صائرون وكل العباد غداً بين يدى الله موقوفون ، وعن أعمالهم محاسبون ، وعلى رب العزة سيعرضون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون.

﴿ **وماتنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا** ﴾ أى هل تكره منا وتعيب علينا إلا إيماننا بآيات ربنا لما جاءتنا ﴿ **ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين** ﴾ .

---

(١) الآيات ٥٦-٧٦ من سورة طه .

الملأ قالوا لفرعون بعد ظهور الحق

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

المفردات : ﴿ **ويذرك** ﴾ : يتركك ﴿ **يستحيى** ﴾ : يبقيهم أحياء .

ولما كان أمر السحرة ومن تبعهم من الناس حينما انضموا إلى موسى وآمنوا به على مشهد من الجموع المحتشدة ، لما كان هذا يقض مضاجع فرعون وملئه ، قالوا لفرعون : أتذر موسى وقومه أحراراً فى الأرض ، يدعون لدينهم ، ويكثر سوادهم ، ويتركك موسى مع آلهتك فلا يعبدونك . ولايعبدونها وفى هذا فساد للأرض ، وذهاب للملك .

قال فرعون : سنقتل أبناءهم ، ونستبقى نساءهم أحياء ، فلا يكثرون كما كنا نفعل قبل ولادة موسى ، ليعلموا أنا على هذا قادرون ، وأنا فوقهم قاهرون ﴿ وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ﴾[1].

ولما سمع بنو إسرائيل ذلك خافوا ، فطمأنهم موسى وقال : ﴿ **استعينوا بالله** ﴾ وحده فهو المعين على الشدائد ، الدائم الباقى ، القادر على كل شىء،واصبروا فالصبر سلاح المؤمن ، واعلموا أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده واعلموا أن العاقبة للمتقين والنصر للمؤمنين ، فليس كما يظن فرعون وقومه .

ولكن هذه الوصية لم تهدئ من روعهم ، فقالوا والأسى يحز فى نفوسهم : ﴿ **أوذينا** ﴾ من قبل مجيئك ، ومن بعد إرسالك ، فقد كنا نسام الخسف ، ونذوق المر ، ونعذب فى أبداننا وتقتل أولادنا ويسوموننا سوء العذاب، وها أنت ذا ترى اليوم مانحن فيه ! قال موسى لهم :رجائى من الله – والله محققه إذا شاء – أن يهلك عدوكم ويجعلكم خلفاء فى الأرض وسادة بعد أن كنتم عبيداً ، وسينظر كيف تعملون ؟ وسيجازيكم على عملكم إن كان خيراً فخيرٌ وإن كان شراً فشر .

---

(١) الآية ٢٦ من سورة غافر .

جزاء العصاة فى الدنيا

وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣)

المفردات : ﴿ **بالسنين** ﴾ : جمع سنة وهى بمعنى الحول إلا أنه أكثر استعمالها فى السنة المجدبة كما هنا. ﴿ **الحسنة** ﴾ : المراد الخصب والنماء ﴿ **سيئة** ﴾ : المراد بها ما يسوءهم من جدب وقحط أو ما يصيبهم فى البدن أو المال ﴿ **يطيروا** ﴾ : يتطايروا ويتشاءموا ، ولعل السر فى إطلاق التطير على التشاؤم أن العرب كانت تعقد الأمل فى الخير على الطائر إذا طار يمينا وتتوقع الشر إذا كان من جهة اليسار ﴿ **طائرهم** ﴾ : المراد ما قضى لهم وقدر ﴿ **الطوفان** ﴾ : ما يطوف بالإنسان ويغشاه وغلب من طوفان الماء ﴿ **الجراد** ﴾ : حيوان طائر يأكل النبات ﴿ **والقمل** ﴾ : هو السوس الذى يظهر فى القمح وقيل هو الدود الذى يأكل الزرع .

أقسم الله سبحانه وتعالى إظهاراً لكمال العناية بمضمون القسم عليه ، لما له من الأثر فى تربية النفوس ، أقسم إنه أخذ آل فرعون بالقحط والجدب والسنين العجاف ، وقد شاع استعمال القرآن كلمة أخذ فى العذاب والشدة ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ﴾[1].

ولقد أخذناهم بهذا كله لعلهم يتذكرون ويتعظون ، وذلك أن من سنته تعالى أن يرسل الزواجر من المصائب والآفات والنقص فى الثمرات تنبيها لعل أصحابها ترجع وتتوب ، فإن تابت واهتدت كان الخير وإلا فالهلاك المحتوم ، والقضاء المعلوم ، وقد كان آل فرعون من النوع الأخير ، ومثلهم كل شخص أو أمة لم تنتبه للزواجر ، ولم تتعظ بالحوادث فى كل زمان إلى يوم القيامة.فإذا جاءت أمة فرعون الحسنة من الخير والنماء ، والزيادة فى الثمرات قالوا إنما أوتينا هذا على علم ومعرفة ، وهذا لنا نستحقه بعملنا ، وإن أصابتهم سيئة الجدب وقلة الثمرة وهلاك الزرع تشاءموا واطّيروا بموسى ومن معه .

يا سبحان الله ! أهكذا يكون ضيق العقل وفساد الرأى وعدم التوفيق ؟ فهم يقولون عند حلول المصائب بهم ما هذا إلا بشؤم موسى وقومه ، وغفلوا عن سيئات أعمالهم ، وشرور أنفسهم ﴿ إن تصبهم

(١) الآية ١٠٢ من سورة هود .

حسنة يقولوا هذه من عند الله ،وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله ﴾ .

ألا إن كل ما يصيبهم من خير وشر فهوبقضاء الله وقدره ، والله قد قضى أن يكون الخير ابتلاء أيشكر صاحبه أم يكفر ؟ وقضى أن يكون الشر ابتلاء كذلك هل يرجع صاحبه عن الغى والفساد أم يظل سادراً فى الطغيان والضلال ؟!!

والله قد قضى كذلك أن تكون أعمال العباد سبباً فيما ينزل بهم من خير وشر غالبا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون الحكمة الإلهية فى تصريف الكون ، ولا يعلمون كيف ربطت الأسباب بمسبباتها ، ولا أن كل شىء عنده بمقدار فليس هناك شىء بشؤم موسى أو غيره ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون .

ومع ذلك كله فقد قالوا مهما تأتنا به من آية تستدل بها على صدقك ، وأنك محق فى دعوتك ، وسموا ما يأتى به موسى آية ، كما يقول فقط لا عن اعتقاد : مهما تأتنا به من الآيات لتسحرنا بها وتصرفنا عما نحن فيه بلطف ورقة فما نحن لك بمصدقين أبداً ، ولا متبعين رسالتك هذا ما كان منهم أما جزاؤهم عليه .

فقد أرسل الله عليهم الطوفان والسيل فأغرقهم ، وأتلف زراعتهم كما ورد فى التوراة وأرسل عليهم الجراد الذى يأكل ما اخضر من ثمارهم وزرعهم ، وأرسل عليهم القمل وهى صغار الذر (كالدودة) التى تأتى عندنا اليوم فتأكل البرسيم وباقى الزروع فى لحظة ، وأرسل عليهم الضفادع وجعل ماءهم كالدم .

كل ذلك آيات مفصلات واضحات ، لا تخفى على عاقل أنها من عند الله وأنها عبرة ونقمة لهم ، وهذه آيات دالة على صدق موسى إذ قد توعدهم بوقوع كل واحدة منها على وجه التفصيل لتكون دلالتها على صدقه واضحة لا تحتمل التأويل ، وهذا معنى آيات مفصلات .

أما هم فاستكبروا وعاندوا ولم يعتبروا بعد هذا كله ، وكانوا قوماً مجرمين .

وهذه الآيات تشير أولا إلى ربط الأسباب بالمسببات على حسب مشيئته تعالى وثانيا إلى أن الآفات التى تصيب الزرع فتهلكه والثمر فتنقصه هذا كله بسبب أعمال الناس فمن أعمالنا سلط علينا ، وما الآفات التى يرسلها الله كل عام علينا ببعيدة وحذار أن تقولوا نحن لا نستحق هذا ، فاعتبروا يا أولى الأبصار ، وفقنا الله للخير .

عاقبة الكفر وخلف الوعد

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم

بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾

المفردات : ﴿ **الرجز** ﴾ : العذاب الشديد الذى يضطرب له الناس ﴿ **ينكثون** ﴾ : ينقضون العهد والنكث فى الأصل نقض الغزل ثم استعمل نقض العهد ﴿ **اليّم** ﴾ : البحر سمى بذلك لأنه مقصود والتيمم القصد .

ولما وقع عليهم ذلك العذاب الشديد الشامل لكل نقمة من النقم الخمس السابقة ، قالوا يا موسى : ادع لنا ربك بسبب ما عهده عندك من النبوة والرسالة ، والكرامة والمحبة ، ونحن نقسم لك لئن كشفت عنا ذلك الرجز لنؤمنن لك ، ولنصدقن بك وبرسالتك ، ولنرسلن معك بنى إسرائيل إلى أرض الميعاد .

فلما كشفنا عنهم العذاب ، وأزلنا عنهم هذا العقاب ، إلى أجل محدود هم بالغوه لامحالة ، فمعذبون فيه ، لا ينفعهم ما تقدم من الإمهال وكشف العذاب إلى حلول ذلك اليوم ... إذهم يمكثون فى العذاب الواحد من الطوفان والجراد الخ أسبوعا ثم يسألون موسى الدعاء برفعه ، ويعدونه بالايمان وإرسال بنى إسرائيل ثم ينكثون العهد وينقضونه .

ولما حان الأجل المضروب انتقمنا منهم فأغرقناهم فى البحر ، وذلك بسبب تكذيبهم بالآيات كلها التى نزلت عليهم ، وكانوا غافلين عما يعقبها من العذاب فى الدنيا والآخرة .

هذا لأكثرهم وبعضهم آمن وبعضهم كان يكتم إيمانه .

من نعم الله على بنى إسرائيل

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ الْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا الَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

المفردات : ﴿ **مشارق الأرض ومغاربها** ﴾ : المراد جميع جهاتها ، والارض هى أرض الشام ومصر . ﴿ **كلمة ربك** ﴾ : وعده لهم . ﴿ **دمّرنا** ﴾ : الدمار الهلاك والخراب ﴿ **يعرشون** ﴾ : يبنون .

وأورثنا القوم من بنى إسرائيل الذين كانوا يستضعفون بقتل أبنائهم ، واستحياء نسائهم ، وإسامتهم سوء العذاب أورث الله هؤلاء المستضعفين الأرض التى باركنا فيها بالخصيب والنماء ،وكثرة الخيرات والأمطار ، وأورثناهم مشارقها من حدود الشام ، ومغاربها من حدود مصر ، وتمت كلمة ربك الحسنى ، وتحقق وعده الأسمى . ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم

الوارثين * ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون ﴾[1].

وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ، وهكذا نتيجة الصبر ، وحسن تلقى الأمر ، أما من يخلعه جزعه ويهلكه هلعه ، فتكون عاقبة أمره خسرا .

ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه من المبانى والقصور والعمارات والدور ، وما كانوا يقيمون من العرائش والسقف فى الجنات والبساتين ، وهكذا من يقوم وقلبه عامر بالإيمان ، وروحه مليئة باليقين والإسلام ، يقوم ضد عدو الله ولو كان فرعون مصر صاحب الحول والطول ، والجند والحشم والمال والخدم ، يقوم لله ولإزالة الفساد والطغيان ، فالله معه وناصره ومؤيده

وقد كان موسى وهارون ومن معهما كذلك ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾[2].

نعم الله على بنى اسرائيل وما قابلوها به

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

المفردات : ﴿ **جاوزنا** ﴾ : جاز الشيء وجاوزه وتجاوزه عدّاه وانتقل عنه ﴿ **يعكفون** ﴾ : لمكف عكف على الشيء أقبل عليه ولازمه تعظيما له ﴿ **أصنام** ﴾ : جمع صنم وهو ما يصنع من خشب أو حجر أو معدن أو عجوة رمزاً لشيء حقيقى أو خيالى ليعظم تعظيم العبادة والتمثال لابد أن يكون مثالاً لشيء حقيقى فإن عبد فهو صنم . ﴿ **متبّر** ﴾ : التبار الهلاك . ﴿ **باطل** ﴾ : هالك وزائل لا بقاء له .

أنعم الله على بنى إسرائيل نعما لا تحصى ، حيث نجاهم من فرعون وملئه ، وأهلك عدوهم ، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم ، وجاوز بهم البحر آمنين ، وأغرق فرعون وقومه ، ومع هذا لم يقابلوا النعم بما يجب من الشكر والطاعة ، بل قابلوها بالكفر والعصيان وهكذا كان اليهود قديما وحديثا ، وفى هذا تسلية للنبى ﷺ .

﴿ **وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر** ﴾ أى تجاوزوه بعناية الله ورعايته ، حتى كان الله معهم بذاته ، فلما انتقلوا عنه ورأوا قوماً « قيل من العرب وقيل من غيرهم » عاكفين على أصنام لهم ومقبلين عليها ومعظمين لها

(١) الآيتان ٥، ٦ من سورة القصص .
(٢) الآية ٧ من سورة محمد .

﴿ قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ﴾ . وهذا الطلب منهم دليل على أن تقديس الأصنام وعبادة غير الله كانت متأصلة فى نفوسهم ، وفيهم حنين لها ، وهذا شأن من دخل فى دين الله حديثا فقد روى مثل هذا عن بعض الصحابة فرد عليهم النبى ﷺ أبلغ رد وأكده ولقد رد موسى على من طلب منه هذا الطلب بقوله : إنكم قوم تجهلون ما يجب لله سبحانه من صفات التقديس والكمال ، وتجهلون حقيقة التوحيد الخالص له سبحانه ، وأنه ليس فى حاجة إلى شفيع أو واسطة بل هو أقرب إلى عبده من حبل الوريد ، وتجهلون حقيقة الرسالة بدليل طلبكم منى هذا !! إن هؤلاء القوم العاكفين على أصنامهم مقضى على ماهم فيه بالهلاك والتبار إذ أنها لا تنفع أبداً ولاتضر ، وباطل عملهم فى الدنيا والآخرة ، وفى تعبير القرآن إشارة إلى أن عبدة الأصنام هم المعرضون للهلاك ، وأن عملهم هذا إلى زوال وفى هذا بشارة بزوال عهد الوثنية من تلك الأرض قل لهم ياموسى : أغير الله خالق السماوات والأرض المنعم عليكم بهذه النعم أطلب لكم إلها غيره ؟ إن هذا لشىء عجيب .

وكيف تطلبون هذا وهو فضلكم على عالمى زمانكم . واذكروا وقت أن أنجيناكم من آل فرعون ، وأنقذناكم من ذل العبودية ، ونار الاستعمار وأنهم كانوا يسومونكم العذاب السيئ : يقتلون أبناءكم الذكور ، ويتركون نساءكم أحياء ، وفى ذلكم المذكور من الإنجاء من فرعون وعمله ، والإنعام عليكم بهذه النعم بلاء واختبار من ربكم عظيم ، والمراد بذكر الوقت ذكر ما حصل فيه حتى يشكروا الله سبحانه ويخصونه وحده بالعبادة والتقديس .

نزول التوراة

* وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

المفردات : ﴿ **ميقات ربه** ﴾ : الوقت المحدد لعمل من الأعمال كمواقيت الصلاة والصوم

﴿ **اخلفني** ﴾ : كن خليفتي فيهم ﴿ **تجلى ربه** ﴾ : انكشف وظهر نوره ﴿ **دكا** ﴾ : مدكوكا ﴿ **صعقاً** ﴾ : مصعوقاً مغشياً عليه ﴿ **أفاق** ﴾ : رجع كما كان ﴿ **بقوة** ﴾ : بعزيمة ونشاط .

من نعم الله تعالى على بنى إسرائيل أنه أنزل عليهم التوراة فيها هدى ونور،وعند إنزال التوراة على نبى الله موسى واعده الله تعالى ثلاثين ليلة ، صامها موسى ثم شعر بخلوف فمه فكره أن يكلم الله برائحة فم الصائم ، فاستاك ليزيل تلك الرائحة ، فأمره الله أن يصوم عشراً أخرى ، إذ إن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

قال تعالى : ﴿ **وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة** ﴾ وهذا ما جاء فى قوله تعالى :﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾[1].

وقبل أن يذهب موسى إلى ميقات ربه ، أوصى أخاه هارون أن يخلفه فى قومه بالخير ، وأن يكون مصلحاً بينهم ، ولا يتبع سبيل المفسدين ، وتلك وصية جاءت من باب التثبيت والتنبيه من باب ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ﴾[2] ذلك لأن هارون كان نبيا يدرك كل هذه المعانى ﴿ **ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك** ﴾ .

أى لما جاء موسى فى الوقت الذى حدده الله له وكلمه الله من وراء حجاب، وسمع موسى كلام الله اشتاق لرؤيته الكريمة ، فسأل الله الرؤية فقال له الله تعالى : لن ترانى فليس هناك من يقوى على رؤيتى لعظم جلالى . روى الإمام مسلم عن النبى ﷺ « حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه (أنواره) ما انتهى إليه بصره من خلقه » .

ثم أراد ربك أنه يخفف من وقع الأمر على نفس موسى ، فقال له﴿ **ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين** ﴾ .

فقد اختار الله لموسى من مخلوقاته الشيء القوى الثابت الراسخ الباذخ الشامخ ، اختار له الجبل ، أيثبت الجبل عندما يتجلى الله عليه بنوره إن الجبل عندما تجلى له الله ساخ فى الأرض من جلال الأنوار الإلٰهية ، ولما رأى موسى ذلك خر مغشيا عليه فلما أفاق قال لرب العزة : سبحانك تقدست وتنزهت ، إن أحداً من الكائنات لا يقوى على أن يصمد أمام نور جلالك وبهائك وسلطانك ، تبت إليك وأنا أول المؤمنين بذلك.وقد جاء فى الحديث الصحيح ما يفيد أن موسى سيكون ممسكاً بجانب العرش يوم القيامة .

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال ﴿ استب رجلان رجل من المسلمين ورجل من اليهود فقال المسلم : والذى اصطفى محمداً على العالمين فقال اليهودى : والذى اصطفى موسى على العالمين . فغضب المسلم على اليهودى فلطمه ، فأتى اليهودى إلى رسول الله ﷺ فسأله فأخبره فدعاه رسول الله ﷺ فاعترف بذلك فقال رسول الله ﷺ « لا تخيرونى على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا

(١) الآية ٥١ من سورة البقرة . (٢) الآية ١٣٦ من سورة النساء .

موسى ممسك بجانب العرش فلا أدرى أكان ممن صعق فأفاق قبلى ، أم كان ممن استثنى الله عز وجل»[١]
أخرجاه فى الصحيحين

رؤية الله فى الآخرة

وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل فى الدار الآخرة فى الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث ، لا يمكن دفعها ولا منعها ، لحديث أبى سعيد وأبى هريرة وهما فى الصحيحين: أن ناساً قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا ربنا يوم القيامة » ؟ فقال : « هل تضارون فى رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب ؟ » قالوا لا . قال : « إنكم ترون ربكم كذلك »[٢] .

وفى الصحيحين عن جرير قال : (نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال: « إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا »[٣]

وفى الصحيحين عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن »[٤] .

وفى افراد مسلم عن صهيب عن النبى ﷺ قال: « إذا دخل أهل الجنة الجنة قال : يقول الله تعالى : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة ؟ وتنجنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم وهى الزيادة » ثم تلا هذه الآية ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾[٥].

وعن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ « إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر فى ملكه ألفى سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه ينظر إلى أزواجه وخدمه وإن أفضلهم منزلة لينظر فى وجه الله كل يوم مرتين » رواه أحمد .

وجل جلال الله إذ يقول ﴿ وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة ﴾[٦]وجل ثناؤه إذ يقول فى حق الكافرين ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾[٧].

---

(١) أخرجه البخارى فى الخصومات (١) وفى الأنبياء (٣١) وفى تفسير (سورة ٧:٢) وفى الرقاق (٤٣) وفى التوحيد (٣١) وأخرجه مسلم فى الفضائل (١٦٠) . وأبو داود فى السنة (١٣) ، والإمام أحمد فى (٢:٦٤) .

(٢) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة ٤:٨) فى الإيمان (٣٠٢) وفى الزهد (١٦) . وأبو داود فى السنة (١٩) والإمام أحمد فى (٣:١٦) .

(٣) أخرجه البخارى فى المواقيت (١٦،٢٦) وفى الأذان (١٢٩) وفى تفسير (سورة ٥٠:٢) وفى الرقاق (٥٢) وفى التوحيد (٢٤) ، وأخرجه مسلم فى الإيمان (٢٩٩،٣٠٠،٣٠٢) . وأبو داود فى السنة (١٩) . والترمذى فى الجنة (١٦) . والإمام أحمد فى (٣:١٦،١٧،٢٦،٢٧) .

(٤) أخرجه البخارى فى التوحيد (٢٤) وفى تفسير (سورة ٥٥:١) . ومسلم فى الإيمان (٢٩٦) . والترمذى فى الجنة (٣) . وابن ماجه فى المقدمه (١٣) . والدارمى فى الرقاق (١٠١) . والإمام أحمد فى (٤:٤١١،٤١٦) .

(٥) أخرجه مسلم فى الإيمان (٢٩٧) . (٦) الآيتان ٢٢،٢٣ من سورة القيامة . (٧) الآية ١٥ من سورة المطففين .

قوله تعالى ﴿ **قال ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين** ﴾ : هنا يخبر تعالى أنه قد اصطفى موسى واختاره للنبوة والكلام والرسالة السماوية . لقد قال له : ﴿ وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ﴾[١]. وقال له : ﴿ وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى ﴾[٢]. وقال له ﴿ واصطنعتك لنفسى ﴾[٣] وقال عنه : ﴿ فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها ﴾[٤] ﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾[٥] ..

والمراد بالناس فى قوله تعالى : ﴿ **إنى اصطفيتك على الناس** ﴾ المراد بهم ناس زمانه إذ أن محمدا ﷺ هو المصطفى على الناس أجمعين . ولما كان موسى نبيا رسولا وأنزل الله عليه كتابا . فقد أمره الله أن يأخذ ما آتاه من الفضل والمنة ويكون من الشاكرين لله على نعمته لأن شكر المنعم واجب .

قوله تعالى : ﴿ **وكتبنا له فى الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين** ﴾ .

وهذه نعمة من نعم الله تعالى على موسى وعلى بنى إسرائيل فقد أنزل الله تعالى عليه الألواح وكتب فيها من المواعظ وتفصيل الأحكام ما يهدى ويرشد إلى صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض وكان فى ذلك تطييب لنفس موسى لما لم يُجبَ إلى طلب الرؤيا لأنه لاطاقة له بها.ثم يأمره تعالى بعد ذلك أن يأخذ ما فى الألواح بقوة وعزيمة فإن أوامر الله ونواهيه ومواعظه إنما شُرعت لتُنَفَّذ وتُطبق ويُعمل بها ولم تنزل ليُضرب بها عرض الحائط وتوضع فى المتاحف ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾[٦]. ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾[٧] . ﴿ فأولئك هم الفاسقون ﴾[٨]. ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ﴾[٩] . ﴿ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾[١٠].

ثم أمره تعالى أنْ يأمر قومه بأن يأخذوا بأحسن ما فى هذه الألواح من مواعظ وأحكام . وهذا أمر بالأخذ بالمثل العليا حتى يكون المكلف متابعا للترق لا مقاوما للتدلى . ثم أخبر سبحانه بعد ذلك بأنه سيوريهم دار الفاسقين أى عاقبة الذين يُخالفون عن أمر الله والذين لا يتلقون أحكامه بالقبول والعمل، فالخروج عن أحكام الله فسق ، وهذا إخبار فيه وعيد وتهديد وبيان لمن خالف وعصى وأبى واستكبر . قال تعالى : ﴿ **ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون** ﴾ . فإن لله تعالى سننا فى كونه .

ومن هذه السنن ما ذكره تعالى فى قوله ﴿ فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى

(١) الآية ١٣ من سورة طه .
(٢) الآية ٣٩ من سورة طه .
(٣) الآية ٤١ من سورة طه .
(٤) الآية ٦٩ من سورة الأحزاب
(٥) الآية ١٦٤ من سورة النساء .
(٦) الآية ٤٤ من سورة المائدة .
(٧) الآية ٤٥ من سورة المائدة .
(٨) الآية ٤٧ من سورة المائدة .
(٩) الآية ٤٩ من سورة المائدة .
(١٠) الآية ٥٠ من سورة المائدة .

ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى*قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى * وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾[١] .

ومن سننه تعالى فى خلقه ما جاء فى قوله ﴿ إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾[٢] .

وفى قوله : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾[٣] . وفى قوله : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[٤] .

الجزاء العادل

سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

المفردات : ﴿ **يتكبرون** ﴾ : الكبر غمط الحقوق وعدم الخضوع لها ، ويصحبه احتقار الناس غالبا . ﴿ **الرشد** ﴾ : الرُّشد والرشاد الصلاح والاستقامة وضده الغى والفساد .

[إن الله تعالى يحب ثلاثة وحبه لثلاثة أشد ، ويبغض ثلاثة وبغضه لثلاثة أشد : يحب الطائعين وحبه للشاب الطائع أشد ، ويحب الكرماء وحبه للفقير الكريم أشد ، ويحب المتواضعين وحبه للغنى المتواضع أشد . ويبغض العصاة وبغضه للشيخ العاصى أشد ، ويبغض البخلاء وبغضه للغنى البخيل أشد ، ويبغض المتكبرين وبغضه للفقير المتكبر أشد] .

ولقد أوعد الإسلام المتكبرين بسوء المصير . قال تعالى : ﴿ فبئس مثوى المتكبرين ﴾[٥] وقال ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » ، قال رجل : يارسول الله ، الرجل منا يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة ، فهل هذا من الكبر ؟ قال رسول الله ﷺ : « إن الله جميل يحب الجمال : الكبر غمط الناس وبطر الحق »[٦] .

يا مدعى الكبر إعجابا بصورته ... انظر خلاك فإن النتن تثريب
لو فكّر الناس فيما فى بطونهم ... ما استشعر الكبر شبان ولا شيب

(١) الآيات ١٣٣-١٣٧ من سورة طه .
(٢) الآية ٨١ من سورة يونس .
(٣) الآية ٩٦ من سورة الأعراف .
(٤) الآية ١١ من سورة الرعد .
(٥) الآية ٧٢ من سورة الزمر .
(٦) أخرجه أبو داود فى اللباس (٢٦) . والترمذى فى البر (٦٠) . والإمام أحمد فى (١:٣٨٥،٢٣٧) .

يا ابن التراب ومأكـول التراب غـداً ... أقصـر فإنـك مأكـول ومشـروب

لقد حكم الله تعالى وحكمه العدل على المتكبرين بأنه سيصرفهم عن آياته جزاء وفاقا ، فلا يفهمونها ولا يفقهون ما فيها ، لا يدركون الحجج القطعية ولا يفهمون البراهين الساطعة ، ولكن يُمنعون من الرؤية الصحيحة لأنهم زاغوا ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾[1].

ومن أفعالهم أنهم إن يروا كل آية لا يؤمنوا بها سواء أكانت آية فى الآفاق ، أو فى الأنفس ، أو متعلقة بالأحكام ، أو من دلائل التوحيد والعظمة الإلهية . قال تعالى : ﴿ إن الذين حقَّت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾[2]. وقال جلّ شأنه : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذَّبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر * ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر * حكمة بالغة فما تغنى النذر ﴾[3]. وقال جلَّ شأنه : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾[4].

لقد أراهم الله آياته فصدفوا عنها وكذَّبوا بها، فلما تنكبوا الجادة وحادوا عن طريق الله المستقيم صارت قلوبهم فى أكنة ، وفى آذانهم وقر ، وعلى أبصارهم غشاوة وبينهم وبين الحق حجاب ، إن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا . لقد شاقوا الله ورسوله ، واتبعوا غير سبيل المؤمنين فاستحقوا أن يُصرفوا عن آيات الله وفهمها وتدبرها ﴿ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم * أفلا يتدبرون القرآن * أم على قلوب أقفالها ﴾[5].

لقد استحقوا هذا الجزاء لأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ، والتكذيب والغفلة معولان يدمّران المجتمعات ، ويقوضان بنيان الأمم . وقد حكم الله تعالى على المكذبين بآياته ولقائه بأن أعمالهم قد حبطت فصارت هباءاً منثوراً قال جلّ شأنه : ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم * هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾[6].

إنه منطق العدالة الإلهية ، فالتكذيب بالآيات واليوم الآخر وبال وخسران مبين : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها * وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾[7].

إن الله تعالى كثيرا ما يذكِّر العباد بلقائه ، وأنه لابد من يوم يُرجعون فيه إلى الله ، وأنهم غداًبين يدى الله موقوفون ، وعن أعمالهم محاسبون ، وعلى رب العزة سيُعرضون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ؟!

---

(١) الآية ٥ من سورة الصف .
(٢) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .
(٣) الآيات ٢-٥ من سورة القمر .
(٤) الآية ١٧ من سورة فصلت .
(٥) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة محمد .
(٦) الآية ١٤٧ من سورة الأعراف .
(٧) الآيتان ٢،١ من سورة الحج .

غـدا توفّى النفوس ما كسـبت ويحصـد الزارعـون ما زرعـوا
إن أحسـنوا أحسـنوا لأنفسـهم وإن أسـاءوا فبئس ما صنعـوا

﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾[1]. ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[2]. ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾[3]

بنو إسرائيل والعجل

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

المفردات : ﴿ الحُلىّ : (بالضم والتشديد) ﴾ واحدها حَلْىٌ (بالفتح والتخفيف) . والعجل : ولد البقرة ، والجسد : الجثة وبدن الإنسان والشيء الأحمر كالذهب والزعفران والدم الجاف . ﴿ **والخوار** ﴾ : صوت البقر كالرغاء لصوت الإبل – وسقط فى يده وأسقط فى يده (بضم أولهما على البناء للمفعول) أى ندم ، وذكرت اليد لأن الندم يحدث فى القلب وأثره يظهر فيها بعضّها أو الضرب بها على أختها كما قال سبحانه فى النادم ﴿ فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ﴾[4] ولأن اليد هى الجارحة العظمى وربما يسند إليها ما لم تباشره كقوله تعالى : ﴿ ذلك بما قدمت يداك ﴾[5].

تأثر بنو إسرائيل بالوثنية التى كان عليها أهل مصر من عبادة عجل (أبيس) ، لذلك لما جاوز الله بهم البحر ، ومروا بقوم يعكفون على أصنام لهم ﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴾ قال : ﴿ أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين ﴾ .

إن بنى إسرائيل أخذهم الحنين إلى عبادة العجل وأقدامهم ما زالت مبتلة بماء البحر ، ونعمة الله عليهم بالنجاة ماثلة أمام أبصارهم ، إنهم عبدوا الذهب والفضة من دون الله ، وقبل رحيلهم من مصر ، قامت نساؤهم بجمع الحلى من نساء مصر ، فجمعوا كثيرا من الذهب والفضة على سبيل العارية ، والعارية مردودة ، لكنهن جمعنها والنية معقودة على أخذها وعدم ردها . وعندما خرج بنو إسرائيل من مصر رجالا ونساءًا، أخذوا حلى المصريين معهم .

(١) الآية ١١١ من سورة النحل .
(٢) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .
(٣) الآية ٤٠ من سورة النساء .
(٤) الآية ٤٢ من سورة الكهف .
(٥) الآية ١٠ من سورة الحج .

ولما ذهب موسى لميقات ربه لينزل الله عليه التوراة ، وقال لأخيه هارون : ﴿ اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾[١] اتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ، والذى أضلهم وصنع لهم هذا العجل من الحلى ، رجل منافق يسمى السامرى قال تعالى : ﴿ فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلٰهكم وإلٰه موسى فنسى ﴾[٢] أى فنسى موسى إلٰهه هنا فذهب يلتمسه هناك

قال تعالى : ﴿ **ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين** ﴾ . وقال جل شأنه : ﴿ أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعا ﴾[٣]..

فماذا كانت صورة هذا العجل ؟

قال ابن كثير : وقد اختلف المفسرون فى ذلك العجل : هل صار لحما ودماً له خوار أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر ؟ على قولين والله أعلم اهـ .

ويرى الرأى الأول : قتادة والحسن البصرى فى جماعة آخرين ، وتعليل ذلك عندهم أن السامرى رأى جبريل حين جاوز ببنى إسرائيل البحر راكبا فرسا ما وطئ بها أرضا إلا حلت فيها الحياة واخضرّ نباتها فأخذ من أثرها قبضة فنبذها فى جوف تمثال العجل فحلت فيه الحياة ، وصار يخور كما يخور العجل .

ويرى جماعة آخرون الرأى الثانى ويقولون : إن خُواره كان بتأثير دخول الريح فى جوفه وخروجها من فيه ، ذلك أنه صنع تمثال عجل مجوفا ووضع فى جوفه أنابيب على طريق فنية مستمدة من دراسة علم الصوت وجعل وضعه على مهب أنابيب الرياح فمتى دخله الريح فى جوف التمثال انبعث منه صوت يشبه خوار العجل .

وقال آخرون : بل كان ذلك الخوار تمويها وعملا منه يشبه عمل الحواة ذلك أنه جعل التمثال أجوف ، وجعل تحت الموضع الذى نصب فيه من ينفخ فيه من حيث لا يشعر الناس . فسمعوا الصوت من جوفه كالخوار ، والناس يفعلون مثل هذا فى النافورات التى تجرى فيها المياه ، وبهذا الطريق ونحوه ظهر الصوت من التمثال ثم ألقى فى روع الناس أن هذا العجل إلٰههم وإلٰه موسى فعبدوه كلهم إلا هارون كما قال الحسن .

﴿ ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربَّكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى * قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾[٤].

قوله تعالى : ﴿ **ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين** ﴾ .

---

(١) الآية ١٤٢ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ٨٨ من سورة طه .

(٣) الآية ٨٩ من سورة طه .

(٤) الآيتان ٩٠، ٩١ من سورة طه .

أى لما اشتد ندمهم بعد علمهم بضلالهم لجأوا إلى الله متضرعين يسألونه الرحمة والمغفرة ، وقالوا : لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين .

وهكذا تعددت جرائم بنى إسرائيل فى جنب الله ، فبعد مجاوزتهم البحر قالوا : يا موسى اجعل لنا إلـٰها كما لهم آلهة ، ثم اتخذوا العجل من بعد ذلك ، إلى غير ذلك من الجرائم المشينة التى سبق ذكرها فى سورة النساء .

عودة موسى إلى بنى إسرائيل

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾

المفردات : ﴿ **أسفا** ﴾ : الأسف الغضب الشديد أو الحزن ، والأسيف الشديد الغضب . ﴿ **أعجلتم** ﴾ : عجل عن الأمر تركه غير تام وأعجله عنه غيره حمله على تركه ناقصا . ﴿ **الألواح** ﴾ : مفرده لوح وهو ما كتب فى التوراة . ﴿ **غضب** ﴾ : المراد ما أمروا به من قتل أنفسهم . ﴿ **وذلة** ﴾ : خروجهم من ديارهم وهوانهم على الناس . ﴿ **نسختها** ﴾ : ما نسخ وكتب منها . ﴿ **يرهبون** ﴾ : الرهبة الخوف الشديد .

وعاد موسى إلى قومه بعدما تلقى الألواح من ربه ، وفيها التوراة وفيها الهدى والنور ، والموعظة الحسنة ، وتفصيل كل شىء ، وكان الله تعالى قد أخبره بفتنة السامرى لهم ، واتخاذهم العجل للعبادة ، فرجع إلى قومه غضبان أسفا ، شديد الغضب لله ، فما كان الأنبياء يغضبون لأنفسهم ، إنما يغضبون إذا انتهكت حرمات الله ، ويرحم الله صاحب الهمزية النبوية إذ يقول فى حق خير البرية :

فإذا سخوت بلغت بالجود المدى
وفعلت ما لا تفعل الأنواء

وإذا خطبت فللمنابر هزة
تعزو الندى وللقلوب بكاء
وإذا رحمت فأنت أم أو أب
هذان فى الدنيا هما الرحماء
وإذا أخذت العهد أو أعطيته
فجميع عهدك ذمة ووفاء
وإذا عفوت فقادرا ومقدرا
لا يستهين بعفوك الجهلاء
وإذا غضبت فإنما هى غضبة
للحق لا ضغن ولا شحناء

إن موسى عليه السلام لما غضب كانت غضبة لله وفى الله ، وهل الإيمان إلا الحب فى الله والبغض فى الله ، فمن أحب لله وأبغض لله ، وأعطى لله ، فقد استكمل الإيمان .

وبين موسى سبب غضبه ، قال : ﴿ **بئسما خلفتمونى من بعدى** ﴾ أى بئس الذى خلفتمونى به بعد ما ذهبت لميقات ربى .﴿ **أعجلتم أمر ربكم** ﴾ وتركتموه ناقصا غير تام ، أم استعجلتم ففعلتم ما فعلتم ﴿ أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى ﴾[1] واشتد الغضب بموسى ﴿ **فألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه** ﴾ كما جاء تفصيل ذلك فى سورة طه .

﴿ قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا * ألا تتبعن أفعصيت أمرى * قال يابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى ﴾[2].

وفى سورة الأعراف ﴿ **قال ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين** ﴾ .

وإنما خاطبه بابن أم ليثير فى نفسه عوامل الرحمة ، وكوامن العاطفة ، ولقد كان هارون حليما رحيما ، وكان شعب إسرائيل ملح الرقبة عنيدا ، وفى كلمات هارون عليه السلام ما يدعو إلى الشفقة عليه والرحمة به ، فقد قال : ﴿ **إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء** ﴾ وشماتة الأعداء داء عضال له تأثيره فى نفوس الأحرار . ﴿ **ولا تجعلنى مع القوم الظالمين** ﴾ فإننى أبرأ إلى الله مما صنعوا ، عندئذ وعى موسى هذا الدرس من أخيه لما فيه من صدق وأمانة فتوجه إلى الله جل فى علاه قائلا ﴿ **رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين** ﴾.

وهذه مناجاة كريمة من نبى كريم لرب كريم ، فالمغفرة وطلب الرحمة من نعم الله تعالى على عبده ،

(١) الآية ٨٦ من سورة طه .
(٢) الآيات ٩٢-٩٤ من سورة طه .

فشعاع من رضى الله يطفىء غضب ملوك أهل الأرض ، ولمحة من غضبه تزهق الروح ، ولو انغمست فى نعيم الدنيا قطرة من فيض جودك تملأ الأرض ريا ، ونظرة بعين رضاك تجعل الكافر وليا :

بك أستجير ومن يجير سواك
فارحم ضعيفا يحتمى بحماك
يارب قد أذنبت فاغفر زلتى
أنت المجيب لكل من ناداك

قوله تعالى ﴿ **إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين** ﴾ .

أما الغضب فذلك لأن الله تعالى أمرهم بقتل أنفسهم ليكون فى ذلك القتل توبة لهم ، كما جاء فى سورة البقرة فى قوله تعالى ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾(١).

وأما الذلة فهوانهم على الناس ، وهوانهم على الله بهذا العمل ، وكذلك نجزى المفترين المبتدعين فى دين الله ، فشر الأمور محدثاتها،وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار . قال تعالى : ﴿ وقد خاب من افترى ﴾(٢) وقال جل شأنه ﴿ ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى ﴾(٣).

قوله تعالى ﴿ **والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم** ﴾

سبحانك ما أكرمك ، ما أحلمك ، ما أحكمك ، ما أعدلك ، ما أعظمك ، ما أرحمك ، تبسط يدك بالليل ليتوب مسيء النهار ، وتبسط يدك بالنهار ليتوب مسيء الليل ، وتنادى هل من تائب فأتوب عليه ، هل من سائل فأعطيه ، هل من مستغفر فأغفر له . أنت القائل فى كتابك ﴿ إن الله لايظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾(٤) وأنت القائل ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم * والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيما . يريد الله ان يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا ﴾(٥) وأنت القائل ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ﴾(٦) .

وسبحانك أنت القائل ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾(٧) .

وأنت القائل : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ﴾(٨).

وأنت القائل ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيما ﴾(٩)

(١) الآية ٥٤ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٦١ من سورة طه .
(٣) الآية ٨١ من سورة طه .
(٤) الآية ٤٠ من سورة النساء .
(٥) الآيات ٢٦-٢٨ من سورة النساء .
(٦) الآية ٣١ من سورة النساء .
(٧) الآية ٤٨ من سورة النساء .
(٨) الآية ١١٠ من سورة النساء .
(٩) الآية ١٤٦ من سورة النساء .

وأنت القائل ﴿ نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ﴾[١].

وأنت القائل : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾[٢]

يارب إن عظمت ذنوبى كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن فبمن يلوذ ويستجير الآثم
أدعوك رب كما أمرت تضرعا فإذا رددت يدى فمن ذا يرحم
مالى إليك وسيلة إلا الرضا وجميل عفوك ثم أنى مسلم

قوله تعالى ﴿ **ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون** ﴾ .

وسكوت الغضب سكونه ، وهدوء النفس ، أخذ موسى الألواح بعد أن سكن غضبه ، وفيها قد كتب من **الأحكام والمواعظ مافيه هدى ورحمة** ، هدى من الضلالة إلى طريق الله ، ورحمة بالعباد إن هم سلكوا طريق ربهم ، وعملوا بما أنزل عليهم ، وهل ينتفع بالهدى والرحمة إلا الذين يخافون الله ، ويخضعون له ﴿ والذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ﴾[٣].

وهل ينتفع بالهدى والرحمة إلا ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾[٤]

يارب حبك فى دمى وكيانى
نور أغر يذوب فى وجدانى
أنا لا أضام وفى رضائك عصمتى
أنا لا أخاف وفى رضاك أمانى

قال قتادة : فى قوله تعالى ﴿ **أخذ الألواح** ﴾ قال : رب إنى أجد فى الألواح خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، فاجعلهم أمتى . قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة هم الآخرون السابقون – أى آخرون فى الخلق سابقون فى دخول الجنة – رب اجعلهم أمتى . قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة أناجيلهم فى صدورهم يقرءونها وكان من قبلهم يقرءون كتابهم نظرا حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئا ولم يعرفوه ، وإن الله أعطاهم من الحفظ شيئا لم يعطه أحدا من الأمم . قال : رب اجعلهم أمتى.قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول ، وبالكتاب الآخر . ويقاتلون فصول الضلالة حتى يقاتلوا الأعور

(١) الآية ٤٩ من سورة الحجر .
(٢) الآية ٥٣ من سورة الزمر .
(٣) الآية ٢ من سورة الأنفال .
(٤) الآية ٢٨ من سورة الرعد .

الكذاب فاجعلهم أمتى . قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها فى بطونهم ، ويؤجرون عليها ، وكان من قبلهم من الأمم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه بعث الله عليها نارا فأكلتها ، وإن ردت عليه فتأكلها السباع والطير ، وإن الله أخذ صدقاتهم من غنيهم لفقيرهم . قال : رب فاجعلهم أمتى . قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة إذا همّ أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائه . رب اجعلهم أمتى . قال : تلك أمة أحمد . قال : ربى إنى أجد فى الألواح أمة هم المشفعون والمشفوع لهم ، فاجعلهم أمتى . قال : تلك أمة أحمد . قال قتادة : فذكر لنا أن نبى الله موسى قال : اللهم اجعلنى من أمة أحمد .

موسى أثناء المناجاة وأحكام أخرى

وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ * وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

المفردات : ﴿ **الرجفة** ﴾ : الصاعقة التى تزلزل القلوب والأبدان . ﴿ **حسنة** ﴾ : المراد صحة وعافية وغنى عن الناس واستقلالا فى الدولة . ﴿ **هُدْنا** ﴾ : رجعنا وتبنا . ﴿ **الأمّى** ﴾ : الذى لا

يقرأ ولا يكتب ﴿ **إصْرهم** ﴾ : الإصر الثقل الذى يأصر صاحبه أى يحبسه عن الحركة لثقله .
﴿ **الأغلال** ﴾ : جمع غل وهو الحديد الذى يجمع بين يد الأسير وعنقه والمراد التكاليف الشاقة .

ذكر المفسرون أن الله قد أوحى إلى موسى أن يختار سبعين رجلا من بنى إسرائيل ويصطفيهم ، ويأتى بهم إليه ، وقد اختلفوا هل كان هذا عقب عبادتهم العجل ليتوبوا ؟ أو كان هذا عند طلب موسى للرؤية .

فاختار موسى سبعين رجلا لميقاتنا ، وأمرهم أن يصوموا ، وأن يتطهروا ثم خرج بهم إلى طور سيناء ، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله ، وقال للقوم : ادنوا ، فدنوا حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا ساجدين ، وسمعوا المولى جل شأنه وهو يكلم موسى بأمره ونهيه . افعل ولا تفعل ثم انكشف الغمام .

فأقبلوا على موسى وطلبوا منه الرؤية ، قيل لم يصدقوا أن الذى أمرهم بقتل أنفسهم هو الله حتى يروه ، فوعظهم موسى وزجرهم فقالوا : يا موسى لن نؤمن حتى نرى الله جهرة . فقال ﴿ **رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى** ﴾ .

وبعض العلماء يقول : طلب موسى الرؤية مع علمه بعدم إمكانه ليسمعوا الرد عليه ، فيكون هذا أبلغ من الرد عليهم ، ولذا أجيب بلن ترانى .

ورجف بهم الجبل ، وصعقوا حينما ألحوا فى طلب الرؤية ، لما أخذتهم الرجفة قال موسى : ﴿ **رب لوشئت أهلكتهم من قبل** ﴾ هذا حينما عبدوا العجل ، وقيل حين طلب الرؤية ، وأهلكتنى معهم كذلك قبل أن أرى ما رأيت .

قال موسى : ﴿ **أتهلكنا بما فعل السفهاء منا** ﴾ حيث طلبوا الرؤية لك جهاراً قياساً منهم على سماع كلامك ، وهو قياس فاسد ، وقيل ما فعله السفهاء هو عبادة العجل ﴿ **ما هى إلا فتنتك** ﴾ وابتلاؤك ، حين كلمتنى فسمعوا كلامك ، وطلبوا الرؤية ، تضل بالمحنة الجاهلين غير الثابتين من معرفتك ، ولست ظالما لهم أبداً ، بل هذا موافق لطبعهم ﴿ **وتهدى بها من تشاء** ﴾ من عبادك التائبين المؤمنين ، وهذا موافق لطبعهم ، والله أعلم بعباده ، فلو تركوا وشأنهم لاختار كل منهم ماهو فيه ، وما قدر له ﴿ **أنت ولينا** ﴾ يارب ﴿ **فاغفر لنا وارحمنا** ﴾ ، واستر عيوبنا برحمتك ، يا أرحم الراحمين .

﴿ **وأنت خير الغافرين** ﴾ تغفر الذنوب ، وتعفو عن السيئات ، بلا سبب ولا علة ، لأن رحمتك وسعت كل شىء .

﴿ **واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة** ﴾ هى نعمة الصحة والعافية والرزق الحسن والتوفيق فى العمل والاستقلال فى الدولة ، واكتب لنا فى الآخرة حسنة هى نعمة الثواب الجزيل ، والعطاء الكثير . إنا هدنا إليك ، وتبنا ، ورجعنا إلى حظيرة الإيمان بالعمل لا بالقول فقط .

قال الله : إن رحمتى سبقت غضبى ، وإن عذابى أصيب به من أشاء من عبادى المسيئين لأنفسهم بالعمل الفاسد ، وفى قراءة : إن عذابى ﴿ **أصيب به من أساء** ﴾ .

وأما رحمتى ونعمتى وفضلى فقد وسعت كل شيء فى الكون ، وسعت الكافر والعاصى ، والمسلم واليهودى وعابد العجل إلخ ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ﴾[1] فسمائى تظلهم ، وأرضى تقلهم ، وبرزقى يعيشون ، وبخيرى يتمتعون ، وأنا أدعوهم دائماً إلى الصراط المستقيم ، ومع هذا كله فبعضهم خارجون عن دينى .

فإذا كان الأمر كذلك من إصابة عذابى من أشاء ، ورحمتى وسعت كل شيء ﴿ **فسأكتبها** ﴾ كما دعوت يا موسى أى أثبتها خالصة غير مشوبة بالعذاب الدنيوى ﴿ **للذين يتقون** ﴾ الله فى كل شيء ، ﴿ **ويؤتون الزكاة** ﴾ وخصت بالذكر لأنه يخاطب قوماً ماديين نفعيين مانعين للزكاة ، وسأكتبها كتابة خاصة للذين ﴿ **هم بآياتنا** ﴾ كلها ﴿ **يؤمنون** ﴾ .

سأكتب رحمتى الواسعة للذين يتقون ويؤتون الزكاة ، وسأكتبها كتابة خاصة للذين هم بآياتنا كلها يؤمنون ، وهم ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى** ﴾ وهذه الأوصاف تنطبق على محمد المفرد العلم ، فهو رسول ونبى أمى ، وقد كان أهل الكتاب يصفون العرب بأنهم أميون ﴿ ليس علينا فى الأميين سبيل ﴾[2] .

وقد وصفه القرآن الكريم ووصف رسالته بأوصاف :

١ - النبى الأمى ، وفى هذا الوصف إشادة إلى كمال صدقه ، حيث أتى بالقرآن المعجز فى أخباره وقصصه وحكمه وأصوله العامة فى السياسة والاجتماع والدين ، مع أن من نزل عليه أمى بين أميين . يا سبحان الله .

٢ - وهو محمد ، الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، فبشارته وصفته وزمانه فى التوراة والإنجيل ، وقد عرفوا ذلك كله كما يعرفون أبناءهم أو أكثر ، وآمن به بعض علمائهم الأحرار من اليهود ، كعبد الله بن سلام ، ومن النصارى كتميم الدارى رضى الله عنهم جميعا ، وفى كتاب (إظهار الحق) لعالم هندى تحقيق هذا الموضوع لمن أراد الزيادة .

٣ - ٤ - أنه يأمرهم بالمعروف شرعاً ، وهو ما تعرفه العقول الرشيدة ، ولا تنكره الطباع السليمة ، وهو ينهاهم عن المنكر شرعاً وهو ما تنكره النفوس الأبية الكاملة فى العقل والسمو الروحى ، ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾[3].

---

(١) الآية ٤٥ من سورة فاطر .

(٢) الآية ٧٥ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ٣٦ من سورة النحل .

٥ - يحل لهم الطيبات التى تستطيبها الأذواق السليمة من الأطعمة الحلال ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾[١] .

٦ - ويحرم عليهم الخبائث ، مما تأباه النفوس السليمة كالميتة والدم المسفوح ، ويأباه العقل الراجح كالخنزير ، خصوصا عندما عرفنا الطب أنه يولد الدودة الوحيدة فى جسم من يأكله .

٧ - وقد وضع عنهم التكاليف الشاقة التى تأمرهم وتثقل عليهم ، والأغلال التى كانت فى أعناقهم ، كقتل النفس عند التوبة ، وقطع مكان النجاسة ، إلخ . فدينه اليسر . وشريعته السمحة السهلة ، والحنيفية البيضاء .

فالذين آمنوا به وبرسالته ، وحموه ونصروه ، مع الإجلال والإكبار ، واتبعوا النور الذى أنزل معه فأولئك البعيدون فى درجات الكمال ، المتميزون على غيرهم هم المفلحون حقاً ، ويدخل فى ذلك دخولا أولياً قوم موسى عليه السلام ، الذين ينطبق عليهم الوصف العام .

قوله تعالى ﴿ **قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إلّه إلا هو يحيى ويميت** ﴾.

وهذا النص الكريم يعطى الدلالة القاطعة على عموم رسالته ﷺ ودوامها ، وأنها لاصقة لما قبلها ولا ينسخها شيء ، قال تعالى فى الحديث القدسى الجليل : [وعزتى وجلالى لو سلكوا إلَىَّ كل طريق واستفتحوا علَىَّ كل باب ما فتحت لهم حتى يأتوا خلفك يا محمد] .

فالإيمان به ﷺ أمر معلوم من الدين بالضرورة .لا ينكره إلا جاحد ختم على قلبه . فكان من الذين قال الله فيهم ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً * أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهيناً ﴾[٢] .

وآيات القرآن خير شاهد على عموم رسالته ، قال تعالى : ﴿ وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾[٣] وقال : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾[٤] وقال : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[٥] وقال : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾[٦]

وروى عنه ﷺ أنه قال « أعطيت خمساً لم يعطهن نبى قبلى ولا أقوله فخراً : بعثت إلى الناس كافة الأحمر والأسود ، ونصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأعطيت الشفاعة فأخرتها لأمتى يوم القيامة فهى لمن لا يشرك بالله شيئاً »[٧] رواه أحمد بإسناد جيد .

---

(١) الآية ٧٥ من سورة البقرة . (٣) الآية ١٩ من سورة الأنعام . (٥) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء .

(٢) الآيتان ١٥٠،١٥١ من سورة النساء . (٤) الآية ٣٨ من سورة سبأ . (٦) الآية الأولى من سورة الفرقان .

(٧) أخرجه البخارى فى التيمم (١) وفى الصلاة (٥٦) . ومسلم فى المساجد (٣) . والنسائى فى الغسل (٢٦) .

وروى الإمام مسلم بإسناده عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال قال رسول ﷺ « والذى نفسى بيده لا يسمع بى رجل من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن إلا بى إلا دخل النار » [١]

الله أكبر إن دين محمد ... وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده ... طلع الصباح فأطفئوا القنديلا

قوله تعالى ﴿ **فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون** ﴾

إن الأمية شرف ومعجزة لرسول الله ﷺ قال تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك إذا لا رتاب المبطلون ۝ بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾ [٢].

أشرق النور فى العوالم لما ... بشرتها بأحمد الأنباء
جاء للناس والسرائر فوضى ... لم يؤلف شتاتهن لواء
وحمى الله مستباح وشرع ... الله والحق والصواب وراء
تلك آى الفرقان أرسلها الله ... ضياء يهدى به من يشاء
نسخت سنة النبيين والرسل ... كما ينسخ الضياء الضياء

إن الذين آمنوا بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولاً ، هم الفائزون .

قال تعالى ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ [٣] .

وقوله تعالى ﴿ **الذى يؤمن بالله وكلماته** ﴾ أى أنه قد جمع بين القول والعمل ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ [٤].

ففى اتباعه الهدى والنور ، وفى الإيمان به الحياة الكريمة الطيبة ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ [٥].

حديث عن بنى إسرائيل

وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن

(١) أخرجه مسلم فى الايمان (٢٤٠) .
(٢) الآيتان ٤٨ ، ٤٩ من سورة العنكبوت .
(٣) الآية ١٥٢ من سورة النساء .
(٤) الآية ٢٨٥ من سورة البقرة .
(٥) الآية ٨٢ من سورة الأنعام .

طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

المفردات : ﴿ **قطَّعناهم** ﴾ : أى صيرناهم قطعاً وفرقا كل فرقة منها سبط . ﴿ **والسَّبط** ﴾ : ولد الولد مطلقا وقد يخص بولد البنت وأسباط بنى إسرائيل سلائل أولاده العشرة : أى ماعدا لاوى وسلائل ولدى ابنه يوسف وهما إفرايم ومنسى إذ سلائل لاوى نيطت بها خدمة الدين فى جميع الأسباط ولم تجعل سبطا مستقلا (والأمة)، الجماعة التى تؤلف بين أفرادها رابطة خاصة أو مصلحة واحدة أو نظام واحد . ﴿ **والاستسقاء** ﴾ : طلب الماء للسقيا . والانبجاس والانفجار واحد . يقال : بجسه فانبجس وبجَّسه فتبجس كما يقال فجره . أى شقه فانفجر وقال الراغب : الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شىء ضيق والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شىء واسع،والغمام : السحاب مطلقا أو الأبيض منه أو الرقيق . و ﴿ **المن** ﴾ : مادة بيضاء تنزل من السماء كالطل حلوة الطعم شبيهة بالعسل وإذا جفت كانت كالصمغ . ﴿ **والسلوى** ﴾ : طير يشبه السمانى (السمان) لكنه أكبر منه . القرية : قيل طبريه والعرب تسمى المدينة قرية . ﴿ **حاضرة البحر** ﴾ : أى قريبة منه على شاطئه ﴿ **يعدون فى السبت** ﴾ : أى يتجاوزون حكم الله بالصيد المحرم عليهم فيه و﴿ **حيتانهم** ﴾ : سمكهم . و﴿ **يوم سبتهم** ﴾ : أى تعظيمهم للسبت يقال سبتت اليهود تسبت إذا عظمت السبت بترك العمل فيه وتخصيصه للعبادة و﴿ **شُرَّعا** ﴾ : أى ظاهرة على وجه الماء ﴿ **نبلوهم** ﴾ : نختبرهم .

قوله تعالى ﴿ **ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون** ﴾

إخبار من الله جل جلاله أن من قوم موسى جماعة اتبعوا طريق الهدى والحق ، وبهذا الحق يعدلون بين الناس .

وذلك كقوله تعالى ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين * وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين ﴾[1].

(١) الآيات ١١٣-١١٥ من سورة آل عمران .

ولقوله جل شأنه ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب ﴾(١).

وكقوله تعالى ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون.وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون ﴾(٢).

وكقوله تعالى ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ﴾(٣).

وكقوله تعالى ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً * ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا * ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا ﴾(٤).

﴿ وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمما ﴾

أى فرقنا قوم موسى الذين كان منهم أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ، ومنهم الظالمون والفاسقون ، فجعلناهم اثنتى عشرة فرقة ، تسمى أسباطا أى أمما وجماعات ، يمتاز كل منهم بنظام خاص فى معيشته وبعض شئونه .

﴿ وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا ﴾

أى وأوحينا إلى موسى حين استسقاه قومه فاستسقى ربه لهم ، أن اضرب بعصاك الحجر ، فضربه فنبعت منه عقب ضربه إياه اثنتا عشرة عينا من الماء بقدر عدد أسباطهم ، وخص كل واحد بعين منها للزحام وحفظا للنظام .

﴿ وظللنا عليهم الغمام ﴾ أى وسخرنا لهم الغمام يلقى عليهم ظله فيقيهم لفح الشمس من حيث لا يحرمون فائدة نورها وحرها المعتدل ، ولولا السحاب فى التيه لأحرقتهم حرارتها ، إذ لم يكن هناك من الشجر ما يستظلون به .

﴿ وأنزلنا عليهم المن والسلوى ﴾

فسهلنا عليهم الطعام والشراب على أحسن الوجوه ، وكان المنّ يقوم مقام الخبز عندهم ، ويكفى الألوف من الناس ، وتقوم السمانى مقام اللحوم والطيور الأخرى .

﴿ كلوا من طيبات مارزقناكم ﴾

أى وأنزلنا عليهم ما ذكر قائلين لهم كلوا من طيبات مارزقناكم ، وفى ذلك تنبيه وتذكير بما كان يجب عليهم من شكر هذه النعم .

(١) الآية ١٩٩ من سورة آل عمران .
(٢) الآيات ٥٣–٥٥ من سورة القصص .
(٣) الآية ١٢١ من سورة البقرة .
(٤) الآيات ١٠٧–١٠٩ من سورة الإسراء .

﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾

أى وما ظلمونا بكفرهم بهذه النعم ، بل ظلموا أنفسهم وأضروها بهذا الجحود والإنكار ، وقد كان ذلك من دأبهم وعادتهم آناً بعد آن ،وقد جاء فى الحديث القدسى الذى رواه مسلم عن أبى ذر مرفوعا [يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى]

ولاشك أن من ظلم نفسه كان لغيره أظلم ، وإن كان ظلمه لنفسه مما يجهل أنه ظلم لها . إذ يتجلى له فى صورة المنفعة وتكون عاقبته مضرة ، وهكذا الحال فى جميع الظالمين والمجرمين ، فهم يظنون أنهم بظلمهم وإجرامهم ينفعون أنفسهم ، جهلا منهم للعواقب ، وقلة تدبر ما ينبغى أن يُتَفطَّن له .

قوله تعالى ﴿ **وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين * فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذى قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون** ﴾ .

تقدم مثل هاتين الآيتين فى سورة البقرة ، غير أن بين الموضعين فروقا ذكرها المفسرون فيما يلى :

١ – أنه قال هنا : ﴿**اسكنوا القرية**﴾ وفى سورة البقرة ﴿ **ادخلوا** ﴾

والفائدة هنا أتم ، لأن السكنى تستلزم الدخول دون العكس .

٢ – أنه قال هنا : ﴿ **وكلوا منها حيث شئتم** ﴾ وفى سورة البقرة ﴿ **فكلوا منها حيث شئتم رغداً** ﴾ . فجاء العطف هناك بالفاء ، لأن بدء الأكل يكون عقب الدخول ، كأكل الثمرات والفواكه التى تكون فى كل ناحية من القرية ، أما السكنى فأمر ممتد يكون الأكل فى أثنائه لا عقبه ، كما وصف هناك الأكل بالرغد وهو الواسع الهنىء ، لأن الأكل فى أول الدخول يكون أكثر ، وبعد السكنى والإقامة لا يكون كذلك .

٣ – أنه قال هنا : ﴿ **وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً** ﴾ وقدم هنا ما أخر هناك وأخر ما قدمه ، والواو لا تدل على طلب ترتيب بين الأمرين ، فالاختلاف فى التعبير دالّ على عدم الفرق بين تقديم هذا وتأخير ذاك ، وبين عكسه ، إذ لا فارق بين أن يدعو بقولهم . ﴿ **حطة** ﴾ أى حط عنا أوزارنا وخطايانا ، الذى هو بمعنى قولنا : اللهم غفراً .

فى حال التلبس بالتواضع والخضوع وتنكيس الرءوس شكراً لله على نعمه عنه دخول القرية ، وبين أن يبدءوا بتنكيس الرءوس والخضوع والتواضع ثم يدعون بقولهم ﴿ **حطة** ﴾ .

٤ – أنه قال هنا : ﴿**سنزيد المحسنين** ﴾ بدون واو ، وهناك ﴿**وسنزيد المحسنين** ﴾ بالعطف ، والمعنى واحد ، وترك الواو أول على أن الزيادة تفضل من الله ليست مشاركه للمغفرة فيما جعل سببا لها من الخضوع والسجود والاستغفار والدعاء بحط الأوزار .

٥ – أنه قال هاهنا : ﴿**فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم**﴾ مزيد منهم على مثله فى سورة البقرة .

ومعنى تبديلهم قولا غير الذى قيل لهم : أنهم عصَوْا بالقول والفعل ، وخالفوا الأمر مخالفة تامة ، لا تحتمل اجتهاداً ولا تأويلا ، فلم يراعوا ظاهر مدلول اللفظ ولا الفحوى ، والمقصود منه حتى كأن المطلوب منه غير الذى قيل لهم .

٦ – أنه قال هنا : ﴿ **فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون** ﴾ وقال هناك ﴿ **وأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون** ﴾ فالاختلاف بين الإنزال والإرسال ، وهو خلاف لفظى ، وبين عليهم وعلى الذين ظلموا ، وبين يظلمون ويفسقون ، وفائدته بيان أنهم كانوا يجمعون بين الظلم الذى هو نقص للحق ، أو إيذاء للنفس أو للغير ، والفسق الذى هو الخروج عن الطاعة ، والرجز العذاب ، الذى تضطرب له القلوب ، أو يضطرب له الناس فى شئونهم ومعايشهم .

والعبرة فى هذا القصص أن نعلم أن الله يعاقب الأمم على ذنوبها فى الدنيا ، قبل أن يعذبها فى الآخرة ، وأن نبتعد بقدر الطاقة عن الظلم والفسق ، فقد عاقب الله بنى إسرائيل بظلمهم ، ولم يحل دون عقابه ما كان لهم من فضائل ومزايا ، لكثرة الأنبياء منهم ، وتفضيلهم على العالمين .

قوله تعالى ﴿ **واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون** ﴾ .

هذه الآية الكريمة تفصيل لما جاء فى قوله تعالى ﴿ **ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين** ﴾ .

وهذه القرية قيل إنها طبرية ، وقيل أيلة ، والمقصود ما حدث فيها من اليهود ، وهذا سؤال موجه إليهم ، والمقصود بهم المعاصرون لرسول الله ﷺ ، أى اسأل هذه الذرية عما فعل أجدادهم فى السبت ، فقد حرم الله تعالى عليهم الصيد فيه ابتلاءاً واختباراً منه ، واصطادوا وجاوزوا الحدود بعدما نهاهم الله تعالى بقوله ﴿**لا تعدوا فى السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا**﴾ وحذر ذريتهم من الكفر بك ، حتى لا ينالهم من العذاب مانال أجدادهم المعتدين .

وقد كان من ابتلاء الله لهم أن حيتانهم ، أى السمك كانت تأتيهم ظاهرة على وجه الماء يوم السبت ، وفى غير يوم السبت لا تأتيهم ، وهذا بلاء منه تعالى واختبار لهم ، فاحتال القوم على انتهاك محارم الله بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التى معناها فى الباطن تعاطى الحرام .

قال الفقيه ابن بطة : حدثنا أحمد بن محمد بن سلم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفرانى حدثنا يزيد بن هارون حدثنا محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل » وهذا إسناد جيد .

الإعذار إلى الله وعاقبة المخالفين

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ * وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

المفردات : ﴿ **أمة منهم** ﴾ : أى جماعة منهم . ﴿ **المعذرة** ﴾ : بمعنى العذر وهو التنصل من الذنب فمعنى معذرة إلى ربكم : قيام منا بعذر أنفسنا إلى الله تعالى . و﴿ **نسوا ما ذكروا به** ﴾ : أى تركوه ترك الناس وأعرضوا عنه إعراضا تاما و﴿ **السوء** ﴾ : العمل الذى تسوء عاقبته . ﴿ **البئيس** ﴾ : الشديد البأس وهو الشدة أو من البؤس وهو الردة أو الفقر ﴿ **والعتو** ﴾ : الإباء والعصيان و﴿ **خاسئين** ﴾ : أى أذلاء صاغرين . قال سيبويه : أذن : أعلم . وأذّن : نادَى وصاح للإعلام ومنه ﴿ فأذن مؤذن بينهم ﴾ ومثله ﴿ **تأذن ربك ليبعثن** ﴾ ! أى ليسلطن و﴿ **يسومهم** ﴾ : يذيقهم ويوليهم . ﴿ **وقطعناهم** ﴾ : فرقناهم ﴿ **أمما** ﴾ : أى جماعات . دون ذلك : أى منحطون عنهم ﴿ **وبلوناهم** ﴾ : امتحناهم والحسنات النعم والسيئات : النقم و﴿ **الخلف** ﴾ : (بسكون اللام) يستعمل فى الأشرار (وبالتحريك) فى الأخيار و﴿ **الكتاب** ﴾ : التوراة . ﴿ **والعرض** ﴾ : (بالتحريك) متاع الدنيا وحطامها . و﴿ **الأدنى** ﴾ : أى الشيء الأدنى والمراد به الدنيا ﴿ **ودرسوا ما**

فيه ﴾ : قرءوه فهم ذاكرون له . و﴿ **يمسّكون** ﴾ : أى يتمسكون به ويعملون . و﴿ **نتقنا الجبل** ﴾ أى رفعناه كما روى عن ابن عباس أو زلزلناه وهو مرفوع يقال نتق السقاء : إذاهزه ونفضه ليخرج منه الزبد أو اقتطعناه كما هورأى كثير من العلماء والظلة : كل ما أظلك من سقف بيت أو سماء أو جناح طائر والجمع ظلل وظلال .

قوله تعالى : ﴿ **وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون** ﴾ .

فى هذه الآية الكريمة يتبين لنا أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب ، ولا تستقيم حياة المجتمعات بدونه ، فالناس بخير ما تناصحوا . قال ﷺ : « الدين النصيحة قلنا لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم »[١].

وعلى الناصح الأمين أن يقصد بنصحه وجه الله تعالى ، وليس عليه إدراك المقاصد . قال تعالى : ﴿ ما على الرسول إلا البلاغ ﴾[٢]. وقال جلَّ شأنه : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر ﴾[٣]. وقال تبارك اسمه : ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾[٤].

إن بنى إسرائيل شعب صلب الرقبة عنيد . لقد كان من بينهم جماعة تقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والوعظوالإرشاد ،ترغيبا وترهيبا وعداً ووعيدا ، فقالت لهم جماعة أخرى على سبيل اللوم : ﴿ **لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا** ﴾ فقد وصفوا هؤلاء القوم بأن الله تعالى سيهلكهم أو يعذبهم عذابا شديدا .

وفى هذا الوصف دليل قاطع ، وبرهان ساطع على سوء أعمالهم ، وكثرة مخالفتهم ، وازدياد سيئاتهم ، أى أن الوعظ أصبح لا يجدى مع هؤلاء ، فقد ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، ولجوا فى طغيانهم يعمهون ، فهم فى ريبهم يترددون ، أصبح المعروف فيهم منكرا ، وصار المنكر فيهم معروفا ، وأضحى الذئب فيهم راعيا ، وبات الخصمُ العنيد قاضيا .

فبأى شيء أجاب الواعظون على سؤال اللائمين . إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما قال سيد الأنام محمد ﷺ : « لتأمرن بالمعروف ولتنهوُنَّ عن المنكر وإلا ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يُستَجاب لهم »

ومن ثمَّ فقد أجاب الواعظون : ﴿ **معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون** ﴾ أى أنهم قصدوا بالوعظ هدفين نبيلين : أنهم أعذروا إلى الله أولا حتى لا يتحملوا ذنب الساكت عن الحق ، فالساكت عن الحق شيطان أخرس ، وأنهم قصدوا بوعظهم أن يؤدى ذلك إلى أن يبعث الله نور الهداية فى قلوبهم ، وذلك على سبيل الرجاء .

(١) سبق تخريج الحديث أكثر من مرة .
(٢) الآية ٩٩ من سورة المائدة .
(٣) الآية ٢١ من سورة الغاشية .
(٤) الآية ٤٥ من سورة ق .

إن خاتم الأنبياء ﷺ بيّن معالم المجتمع المستقيم فقال : « إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاءكم وأمركم شورى بينكم فظهر الأرض أولى بكم من بطنها »

كما بيّن معالم المجتمع المعوج فقال : « وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأمركم إلى نسائكم فبطن الأرض أولى بكم من ظهرها »[١].

وفى القرآن الكريم آيات بينات فيها البيان الشافى والدواء الناجع لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، لقد بيّن الله لنا معالم المجتمع السعيد فى قوله : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾[٢].

كما بيّن معالم المجتمع الشقى فى قوله : ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ﴾[٣].

لقد قام دعاة الخير بالوعظ والإرشاد فبرئت ساحتهم ، أما القوم الذين مرنوا على المخالفات فلم يقبلوا لأهل الخير وعظا ، بل استغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ، فكان لابد من كلمة الفصل ولا يملكها إلا الله وحده ، فكان الجزاء العادل والحكم الفاصل : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون** ﴾.

هذه كلمة الفصل والله جلَّ جلاله إذا حكم فلا معقب لحكمة ، وإذا قضى فلا راد لقضائه ، يقص الحق وهو خير الفاصلين . إن الناس إذا نسوا ما ذكروا به فقد أتوا بهتانا وإثما مبينا ، وجاءوا إثما وزوراً . لقد أنجى الله الذين ينهون عن السوء . قال تعالى : ﴿ ثم ننجى رُسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين ﴾[٤]. وقال عزَّ من قائل : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾[٥].

ولابد أن يلقى الظالمون مصيرهم فالظلم لا يدوم وإذا دام دمَّر، والحرام لا يدوم وإذا دام لا ينفع . وقد اقتضت سنة الله فى خلقه أنه لا يعجل كعجلة أحدنا ، إنه يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .

قال تعالى ﴿ **وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس** ﴾

وهذا منطق العدالة الإلهية . وهل يدمر الأمم إلا الظلم . قال تعالى : ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ﴾[٦]. وقال جلّت حكمته : ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا ﴾[٧]. وقال عزَّ من قائل : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾[٨]. وقال تبارك فى علاه : ﴿ وماكنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾[٩]. وقال أصدق القائلين : ﴿ فكأيِّن من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية

(١) أخرجه الترمذى فى الفتن (٧٨) .
(٢) الآية ٧١ من سورة التوبة .
(٣) الآية ٦٧ من سورة التوبة .
(٤) الآية ١٠٣ من سورة يونس .
(٥) الآية ٥١ من سورة غافر .
(٦) الآية ١٣ من سورة يونس .
(٧) الآية ٥٩ من سورة الكهف .
(٨) الآية ١١٧ من سورة هود .
(٩) الآية ٥٩ من سورة القصص.

على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾[1].

إن الله تعالى لما أخذ الظالمين بعذاب شديد ذكر السبب فى ذلك فقال : ﴿ **بما كانوا يفسقون** ﴾ . والفسق خروج على أوامر الله وتمرد على أحكامه ، وتعطيل شرعه من أشد أنواع الفسوق ، وتكذيب آياته والاستهزاء بها من أشد المخالفات .

وقد بيَّن الله تعالى بعض صور هذا العذاب الشديد الذى أخذ به الظالمين فى قوله : ﴿ **فلما عتوا عن مانهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين** ﴾ .

والعتو : تمرد وطغيان ونفور وشرود عن الحق . وللمفسرين رأيان فى مسخ هؤلاء قردة :

يرى البعض أنهم مسخوا خلقا وجسما فكانوا قردة حقيقيين .

ويرى الآخرون أنهم مسخوا خُلقا وقلبا فكانوا فى أخلاقهم وقلوبهم يحاكون القردة فى الخفة والتقليد .

ومهما يكن فإن الله تعالى جعلهم خاسئين أذلاء وسيظلون أذلاء إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فإن الله تعالى قد ضرب الذلة عليهم أينما ثقفوا وقد باءوا بغضب من الله ، وضُربت عليهم المسكنة ، ولم يكن ذلك ظلما ولا عدوانا لهم ، إن الله لا يظلم مثقال ذرة . لذلك فقد بين الله تعالى بعد ذلك أسباب حكمه عليهم فقال : ﴿**ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **وإذ تأذَّن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربَّك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم** ﴾ .

أى واذكر يا محمد إذ أعلم ربك هؤلاء القوم الظالمين ، ليبعثن عليهم من خلقه من يذيقهم العذاب الأليم ، جزاء بغيهم وظلمهم ، فسلَّط عليهم المجوس ثم نصارى الروم ، ثم أقواما آخرين مثل : ألمانيا أيام الحرب العالمية . وهذه سنة الله فى خلقه ﴿ ولله مافى السماوات ومافى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾[2]

وتاريخ اليهود ملىء بالجرائم والقبائح فقد ملأوا طباق الأرض فسادا ، بكل ما تحتمله هذه الكلمة من معان ، فقد سألوا موسى قائلين : ﴿ أرنا الله جهرة ﴾[3] بل قالوا ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾[4]، وقالوا له : ﴿اجعل لنا إلـٰها كما لهم آلهة ﴾[5] ثم اتخذوا العجل من بعد ماجاءهم من البينات ، وصدوا عن سبيل الله ، وأخذوا الربا ، وأكلوا أموال الناس بالباطل ، وكفروا وقالوا على مريم بهتانا عظيما ، وقالوا كذبا وبهتانا : ﴿ إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم ﴾[6] بل لقد أساءوا الأدب حتى مع

(١) الآية ٤٥ من سورة الحج .
(٢) الآية ٣١ من سورة النجم .
(٣) الآية ١٥٣ من سورة النساء .
(٤) الآية ٥٥ من سورة البقرة .
(٥) الآية ١٣٨ من سورة الأعراف .
(٦) الآية ١٥٧ من سورة النساء .

الله جلَّ فى علاه لقد قالوا : ﴿ إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾[١] وقالوا : ﴿ يد الله مغلولة ﴾[٢]. و﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾[٣]. وقالوا : ﴿ عزير ابن الله ﴾[٤] وقتلوا أنبياء الله .

ولما بعث نبى الله محمد ﷺ ناصبوه العداء الشديد ، فأتى بنو قينقاع عملا لايأتيه إلا وغد نذل جبان لئيم ، عندما كشفوا ثوب امرأة مسلمة ، فبدت سوءتها فأجلاهم رسول الله ﷺ عن المدينة .

ثم تحالف بنو قريظة مع المشركين وأتوا الخيانة العظمى يوم غزوة الأحزاب ، فحق فيهم قول الله تعالى : ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شىء قديرا ﴾[٥]

أما بنو النضير فبئس ما صنعوا : فقد تآمروا على قتل رسول الله ﷺ بأسلوب فيه مكر الثعالب وسم العقارب وفحيح الأفاعى . فكان جزاؤهم كما قال جلَّ شأنه : ﴿ هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار * ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ﴾[٦] .

وما يوم خيبر ببعيد ، عندما دسَّت يهودية السُّم لرسول الله ﷺ فى ذراع شاة إلى غير ذلك من المؤامرات التى لا تكاد تُحصى .

إنهم دأبوا على سفك الدماء ، وقتل الأبرياء ، ﴿ كلما جاءهم رسول بمالا تهوى أنفسهم فريقا كذَّبوا وفريقا يقتلون ﴾[٧] . ﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم * أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ﴾[٨].

ذلك حكم الله على هؤلاء المارقين من شذّاذ الآفاق ، وبغاة البشر ، وأولاد الأفاعى ، الذين عكفوا على حرب الإسلام والطعن فى نبيه الكريم ، والكيد للمسلمين . وما جمعية « عبد الله بن سبأ » اليهودى الذى تظاهر بالإسلام منَّا ببعيد ، فقد كان على رأس جمعية سرية ارتكبت من الجرائم ما يستحى الشيطان من فعله ، ويتضاءل إبليس أمامه، لقد قامت هذه الجمعية السرية بقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وهو يصلى الفجر ، كما قام عبد الله بن سبأ بتأليب المسلمين على عثمان بن عفان رضى الله عنه حتى انتهى الأمر بقتله ، وقامت بإشعال نار العداء بين صفوف المسلمين حتى كانت موقعة الجمل وموقعة صفين .

وقاموا على امتداد التاريخ بتأليب قوى الشر على المسلمين ، حتى قامت لهم دولة فى فلسطين ، ففى

---

(١) الآية ١٨١ من سورة آل عمران

(٢) الآية ٦٤ من سورة المائدة .

(٣) الآية ٣١ من سورة التوبة .

(٤) الآية ٣٠ من سورة التوبة .

(٥) الآيتان ٢٦، ٢٧ من سورة الأحزاب .

(٦) الآيات ٢-٤ من سورة الحشر .

(٧) الآية ٧٠ من سورة المائدة .

(٨) الآيتان ٢١، ٢٢ من سورة آل عمران .

اليوم الخامس عشر من شهر مايو ارتفع على ربوع فلسطين علم أبيض ذو نجمة زرقاء مسدسة الأضلاع ، ومن يومها صارت فلسطين وطنا بلا شعب لشعب بلا وطن ، ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[1].

إن واقع المسلمين تسيل له الكبد مرارة ، وينخلع له الفؤاد أسى ، وقد أصبحوا كالغنم الشريدة فى الليلة الشاتية . ويوم يعودون إلى الله سيمكنهم الله من أكتاف عدوهم ، وينصرهم عليهم ، ويشفى صدور قوم مؤمنين ، إن الله عزيز لايُقهر حكيم مُنزه عن العبث ﴿ كتب الله لأغلبنَّ أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾[2].

إنه سبحانه بعث على اليهود من يسومونهم سوء العذاب بمحض عدله جزاءً وفاقا ، إن ربك لسريع العقاب لمن عصاه وأعرض عن ذكره ، واتبع هوى النفس ، كما أنه غفور رحيم وسعت رحمته كل شىء وعمت مغفرته كل من تاب وصدق النية مع الله . قال تعالى ﴿ ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى*وإنى لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾[3].

قوله تعالى : ﴿ **وقطعناهم فى الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون** ﴾ :

من عقاب الله تعالى لهؤلاء القوم أنه قطعهم فى الأرض فرقا ، ومزَّقهم فئات تفرقوا فى دول الأرض : فى روسيا وأمريكا ودول أوروبا ، وعلى امتداد القارات وإذا كانوا قد قامت لهم دولة فى فلسطين فلن تقوم الساعة حتى نقاتلهم فيختبىء اليهودى وراء الحجر فينادى الحجر قائلا : ﴿ يا مسلم إن ورائى يهوديا تعال فاقتله ﴾[4]

وذلك يوم نعود إلى المنهج الربَّانى ، فيكون الله غايتنا ، والرسول زعيمنا ، والقرآن دستورنا ، والجهاد سبيلنا ، والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا . يومها ستردد الأمة الإسلامية نشيدها المقدس : سنطبُّ المريض بدوائنا ، وسنؤمن الخائف فى رحابنا ، وسنتلو على الدنيا كتاب جهادنا . صُمَّت أذن الدنيا إن لم تسمع لنا .

الله أكبر إن دين محمد	وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده	طلع الصباح فأطفئوا القنديلا

يومها سيتحقق وعد الله لعباده المؤمنين : ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾[5].

---

(١) الآية ٢١٧ من سورة البقرة . (٢) الآية ٢١ من سورة المجادلة . (٣) الآيتان ٨١، ٨٢ من سورة طه .

(٤) أخرجه البخارى فى المناقب (٢٥) . والإمام أحمد فى (١:٣٧٥) وفى (٢:١٦٧، ٣١٧) وفى (٥:١٦) . ومسلم فى الفتن (٧٩-٨٢) . والترمذى فى الفتن (٥٦) .

(٥) الآيتان ٤٠، ٤١ من سورة الحج .

إن الله تعالى قد أخبر بأن النصر لمن ينصره ، فقال عز من قائل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾[١]

فوالله لو أكرمنا كتاب الله ما أهاننا أحد ، ولو أقمنا شرعه لرفرفت راية الحبيب محمد على كل بلد ، وقد صدق الفاروق عمر إذ يقول : « لقد كنا أذلاء فأعزَّنا الله بالإسلام ، فإذا ابتغينا العزة فى غيره أذلنا الله » .

فما للقلوب أصبحت لا تخشع ؟! وما للآذان أصبحت لا تسمع ؟! وما للأعين أصبحت لا تدمع ؟! وما للأجسام أصبحت لا تسجد ولا تركع .

يا أخا الإسلام قم مزق الضلوع كمدا على هذا الفساد الشائع ، وسلسل الدموع حزنا على هذا الخلق الضائع ، ويوم ينادى الحجر على المسلم ليقتل من اختبأ وراءه من اليهود ، إنما يناديه باسم الإسلام لا باسم القومية أو الحزبية أو الاشتراكية ، فتلك أوثان الجاهلية ، فالإسلام دين الله الذى ارتضاه لنا . ويوم يصير الإسلام المنهج الذى نلتزم به فى حياتنا فلن تستطيع قوة على وجه الأرض أن تهزمنا ، لأن وعد الله صدق ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾[٢] .

وقد أخبر الله تعالى عن بنى اسرائيل بأن منهم صالحين وهم الذين نهوا عن المنكر وآمنوا بموسى ، كما آمنوا بمحمد عندما أدركوا زمانه وأن منهم غير الصالحين كالذين اعتدوا فى السبت وأتوا من المخالفات ما أخبر الله عنهم فى كتابه كما أخبر جلَّ شأنه أنه ابتلاهم بالحسنات والنعم ليشكروا ، كما ابتلاهم بالسيئات ليزدجروا ويرجعوا عن غيِّهم وطغيانهم .. وتلك سنة الله فى خلقه .. قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون * فلولا إذجاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزينَّ لهم الشيطان ماكانوا يعملون * فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾[٣] .

قوله تعالى : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيُغفر لنا وإن يأتهم عرض مثلهيأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون** ﴾

أى جاء من ذرية هؤلاء القوم خلف كانت تلك صفاتهم : ورثوا التوراة وقرأوا أحكامها ، ولكنهم لم يعملوا بشىء منها . لقد فُتحت عليهم الدنيا فانساقوا وراءها انسياقا ، ووراء عرضها الأدنى القريب ، فجمعوا المال ولم يُبالوا ولم يَرعَوْا لله عهدا ، جمعوا المال من السحت والحرام والرشا ، وغرَّتهم الأمانى

(١) الآية ٧ من سورة محمد . (٢) الآية ٥٥ من سورة النور . (٣) الآيات ٤٢-٤٥ من سورة الأنعام .

وقالوا سيُغفر لنا ، وبنوا تلك الأمانى على أنهم من سلالات الأنبياء ، وأنهم شعب الله المختار ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه ، ولم يكونوا صادقين لأن الله تعالى يقول : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[1] وإن الله تعالى أعد الجنة لكل طائع ولو كان عبدا حبشيا وأعدَّ النار لكل عاص ولو كان حراً قرشيا . كان رسول الله ﷺ يقول لفاطمة : « يا فاطمة اعملى لا أغنى عنك من الله شيئا »

قال تعالى : ﴿ فإذا نُفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خَفَّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون ﴾[2].

إن الإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، وإن مما يدل على أن هؤلاء القوم لم يكونوا صادقين مع الله أنهم بعد أن قالوا سيُغفر لنا لم يصدق عملهم قولهم . قال تعالى : ﴿ **وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه** ﴾ فهم مع الدنيا يدورون حيث دارت ، وقد حذَّر الصادق المعصوم ﷺ أمته من الارتماء فى أحضان الدنيا فقال : « والله ما الفقر أخشى عليكم ولكنى أخشى أن تفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضا وينكركم أهل السماء عند ذلك ، فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه » ثم تلا قوله تعالى : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزينَّ الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[3].

ولقد فتحت الدنيا على المسلمين فأنكر بعضهم بعضا فتفرق جمعهم وتمزقت كلمتهم فتداعت عليهم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، وصاروا غُثاءًا كغثاء السيل عندما ألقى الوهن فى قلوبهم فأحبوا الدنيا وكرهوا الموت ، ونُزع الرعب من قلوب أعدائهم فحاربوهم فى شتى الميادين سياسيا واقتصاديا وعسكريا وثقافيا ، فأصبحوا كالأيتام على موائد اللئام ، وصاروا فى ذيل القافلة ليس لهم كلمة ولا يؤخذ لهم رأى وهم يملكون الموقع والأرصدة والطاقة والعقيدة والثروة البشرية .. كما يقول القائل :

أليس من العجائب أن مثلى ... يرى ما هان ممتنعا عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا ... وما من ذاك شيء فى يديه

وكما يقول آخر :

ويقضى الأمر حين تغيب تيمٌ ... ولا يُستأذنون وهم شهود

لقد صاروا غرباء فى أوطانهم وأضحوا كما قال القائل :

ما للمنازل أصبحت لا أهلها أهلى ولا جيرانها جيرانى

ولقد أخذ الله الميثاق والعهد المؤكد على هؤلاء القوم الذين ورثوا التوراة ألا يقولوا على الله إلا الحق ولكنهم غيروا وبدلوا وحرفوا الكلم عن مواضعه ومن بعد مواضعه بعد ما درسوا فى الكتاب وقرأوه ،

---

(١) الآية ١٣ من سورة الحجرات . (٢) الآيات ١٠١-١٠٣ من سورة المؤمنون .

(٣) أخرجه البخارى فى الجزية (١) وفى المغازى (١٢) وفى الرقاق (٧) . وأخرجه مسلم فى الزهد (٦) . والترمذى فى القيامة (٢٨) . وابن ماجه فى الفتن (١٨) . والإمام أحمد فى (٤:١٣٧) .

ولكنهم بعد الدراسة والقراءة كانوا كمثل الحمار يحمل أسفارا ، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقَوْن غيا . ولو أنصفوا وعقلوا ورشدوا لعلموا أن الدار الآخرة خير وأبقى وأنها الحيوان أى الحياة الكاملة التى لا نصب فيها ولا لغوب ، وأن الجنة هى دار القرار لايشقى من دخلها ولا ييأس ، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه ، وله فيها أزواج مطهرة من الحور العين اللائى يقلن : نحن الناعمات فلا نبأس ، نحن الراضيات فلا نسخط ، نحن المقيمات فلا نظعن ، نحن الخالدات فلا نبيد ، طوبى لمن كان لنا وكنا له .

لا تركنن إلى الدنيا وما فيها ... فالموت لاشك يفنينا ويفنيها
واعمل لدار غداً رضوان خازنها ... والجار أحمد والرحمن منشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها ... والزعفران حشيش نابت فيها

قوله تعالى : ﴿ **والذين يُمسِّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين** ﴾ .

هذا وعد من أكرم الأكرمين وأعدل العادلين لكل من يستمسك بكتابه ويعمل بما فيه من أحكامه وعلى رأسها إقامة الصلاة . وعد بألا يضيع الله أجره فى الدنيا والآخرة . قال تعالى : ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾[1]. وقال جلَّ شأنه : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾[2] .

وقد أخبر الله عن العاملين بالكتاب المقيمين للصلاة بأنهم المصلحون ، ذلك لأن الإيمان بناء وشموخ ورسوخ وبزوخ وارتقاء.فالمؤمن لا يعرف السلبية لأنه كالغيث أينما وقع نفع ، لا يعرف الإضرار بالناس لأنه من البررة الكرام ، ينظر إلى خلق الله بعين ثاقبة وقلب سليم لا يعرف حقدا ولا حسدا ولا بغضاء ولا شحناء ، فهو سخى النفس ، سليم الصدر ، يعرف الإيثار ولا يطيق الأثرة يبنى ولا يهدم ، يصون ولا يبدد ، ملتزم بأمر ربه ، يقول الحق وينطق الصدق ويحكم العدل .

قوله تعالى : ﴿ **وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون** ﴾ .

إخبار من الله تعالى عن آية من آياته مع بنى إسرائيل ، أنهم قوم ماديون حسيون ، بلغ من جرأتهم على الله أنهم قالوا لموسى : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة .. إنهم عبدوا العجل الذى صنعوه من الحلى ، إنهم لا يعرفون الرحمة كما وصفهم الله فى قوله : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ﴾[3].

لقد تلكأوا فى تنفيذ أحكام التوراة فأراهم الله آية شاهدوها بأبصارهم ورأوها رأى العين . رفع الجبل العظيم فوق رءوسهم حتى صار كأنه غمامة تظلهم ورأوه هكذا وظنوا أنه واقع بهم أى سيغوص بهم فى

(١) الآية ١٢٣ من سورة طه . (٢) الآية ٣٠ من سورة الكهف . (٣) الآية ٧٤ من سورة البقرة .

أعماق الأرض - روى أن بنى إسرائيل أبَوْا أن يقبلوا التوراة ، فرُفِع الجبل فوقهم وقيل لهم إن قبلتم العمل بها وإلا ليقعن عليكم ، فوقع كل منهم ساجدا على حاجبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقا من سقوطه ، فلذلك لا ترى يهوديا يسجد إلا على حاجبه الأيسر ويقولون هى السجدة التى رُفِعَت عنا بها العقوبة حين امتثلنا ما أمرنا به .

لقد أمرهم الله تعالى أن يأخذوا الكتاب بقوة وعزم لأن الالتواء مركوز فى طباعهم وهم مجبولون على العناد كما أمرهم أن يذكروا ما فى التوراة ليكون فى ذلك السلوك تقوى الله والتقوى هى السلاح الأقوى : هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل .

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرا ... وعند الله للأتقى مزيد

ميثاق من الله على عباده

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

المفردات : ﴿ **أخذ** ﴾ : أخرج ، وإنما عبّر به لأنه يدل على الاصطفاء والتمييز . ﴿ **الظهور** ﴾ : واحدها ظهر ، وهو ما فيه العمود الفِقْرى لهيكل الإنسان الذى هو قِوام بنيته فيصح أن يعبر به عن جملة الجسد . ﴿ **والذرية** ﴾ : سلالة الإنسان من الذكور والإناث ، والشهادة تارة قولية كما قال : ﴿ قالوا شهدنا على أنفسنا ﴾[1] وتارة تكون حالية كما قال : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾[2] أى حالهم شاهدة عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك .

العلم بوحدانية الله مركوز فى فطر الخلائق وطباع الكائنات ، فمن شذ عن التوحيد فذلك شذوذ فى الرأى ونشاز فى التفكير ، فلو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه ، وقلت له : من خالقك لأجابك بلسان الحال والمقال : أنا مخلوق للواحد الديان .

سبحانك اللهم أنت الواحد
كل الوجود على وجودك شاهد
يا حى ياقيوم أنت المرتجى
وإلى علاك علا الجبين الساجد

(١) الآية ١٣٠ من سورة الأنعام . (٢) الآية ١٧ من سورة التوبة .

سبحانك ربى أنت الواحد فى ذاتك لاقسيم لك ، الواحد فى صفاتك لاشبيه لك ، الواحد فى أفعالك لاشريك لك .

يا من له عنت الوجوه بأسرها
رهبا وكل الكائنات توحد
أنت الإلٰه الواحد الحق الذى
كل القلوب له تقر وتشهد

لذلك فإن فريقا من المفسرين يرى أن قوله تعالى ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين** ﴾ .

يرى هذا الفريق أن الآية تخبر عن الإيمان الفطرى الذى ركزه الخالق العظيم فى خلقه ، ومن ثم فإن منطوق الآية يقول من بنى آدم ، ولم يقل من آدم ، ويقول من ظهورهم.ولم يقل من ظهره ، والمراد بالذرية ما يتوالد من البشر جيلا بعد جيل ، فإن الله جلت قدرته أقام فى الكون من الأدلة مالا تحصره عد ، ولا يحيط به حد ، وكلها ناطقة على وحدانية الله ، وكفى بتلك الآيات حجة على العباد ، قال تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد * ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شىء محيط ﴾[١] .

وكما أن الشهادة تكون بلسان المقال ، فإنها يضا تكون بلسان الحال ، وذلك كقوله تعالى ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾[٢]

هذا وقد ذكر العلامة ابن كثير من الأحاديث ما يؤيد الإيمان الفطرى فى هذه الآية ، كما ذكر الرأى الآخر الذى يرى أن الله استخرج الذرية من ظهر آدم ، وأخذ عليهم الميثاق بو حدانيته، فشهدوا وأقروا . ونحن نسوق ما ذكره ابن كثير تتمة للفائدة .

قال رحمه الله تعالى فى هذه الآية :

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ، ومليكهم ، وأنه لا إلٰه إلا هو ، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك ، وجبلهم عليه قال تعالى ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾[٣] .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة » وفى رواية « على هذه الملة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تولد بهيمة جمعاء هل تحسون

(١) الآيتان ٥٣ و٥٤ من سورة فصلت . (٢) الآية ١٧ من سورة التوبة . (٣) الآية ٣٠ من سورة الروم .

فيها من جدعاء »[١] وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال ، قال رسول الله ﷺ « يقول الله : إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم »[٢].

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله : حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرنى السرى بن يحيى أن الحسن بن أبى الحسن حدثهم عن الأسود بن سريع من بنى سعد قال غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات قال : فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتد عليه ثم قال :« ما بال أقوام يتناولون الذرية » فقال رجل : يارسول الله أليسوا أبناء المشركين ؟ فقال « إن خياركم أبناء المشركين ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسان فأبواها يهودانها وينصرانها »[٣].

قال الحسن : والله لقد قال الله فى كتابه ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم** ﴾ وقد رواه الإمام أحمد عن إسماعيل بن عليه عن يونس بن عبيد عن الحسن البصرى به . وأخرجه النسائى ، فى سننه من حديث هشيم بن يونس بن عبيد عن الحسن قال حدثنى الأسود بن سريع فذكره ولم يذكر قول الحسن البصرى واستحضاره الآية عند ذلك .

ثم ساق رحمه الله تعالى الأحاديث التى تؤيد الرأى الآخر فقال : وقد وردت أحاديث فى أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، وفى بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم .

روى الإمام أحمد عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا به قال : فيقول : نعم . فيقول : قد أردت منك أهون من ذلك . قد أخذت عليك فى ظهر آدم أن لا تشرك بى شيئاً فأبيت إلا ان تشرك بى »[٤] أخرجاه فى الصحيحين من حديث شعبة به .

وروى الامام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنه قال عن النبى ﷺ قال : « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلا »[٥] قال ﴿ **ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إلى قوله – المبطلون** ﴾ وقد روى هذا الحديث النسائى فى كتاب التفسير من سننه .

(١) أخرجه البخارى فى الجنائز (٧٩،٩٢) وفى تفسير (سورة ٣٠ : ١) وفى القدر (٦٦) . وأبو داود فى السنة (١٧) والامام مالك فى الجنائز (٥٣) . والإمام أحمد فى (٢:٣٣،٢٧٥،٣٩٣) .

(٢) أخرجه مسلم فى الجنة (٦٣) . والإمام أحمد فى (٤:١٦٢) .

(٣) أخرجه مسلم فى الجهاد (٢٨) .

(٤) أخرجه البخارى فى الايمان (١١) . ومسلم فى الإيمان (٢٠٣،٢٩٩،٣٣٨) . وأبو داود فى الأدب (٤٧) . والترمذى فى الحدود (١٢) وفى القيامة (١٣) . والنسائى فى البيعة (٩،١٧،١٨،٣٨) . وابن ماجه فى الفتن (٢٣) . والدارمى فى الوضوء (١) . والإمام أحمد فى (١:٥،٢٠٢،٢٦٢،٢٦٣،٣٠١) .

(٥) أخرجه الإمام أحمد فى (٦:٤١،٢٠٨) .

وروى ابن جرير بإسناده عن ابن عباس قال : « أخرج الله ذرية آدم من ظهره كهيئة الذر وهو فى أذى من الماء » .

وعن جرير قال : «مات ابن للضحاك بن مزاحم ابن ستة أيام قال : فقال : يا جابر إذا أنت وضعت ابنى فى لحده فأبرز وجهه وحل عنه عقده ، فإن ابنى مجلس ومسئول . ففعلت به الذى أمر ، فلما فرغت قلت : يرحمك الله عما يسأل ابنك ؟ من يسأله إياه ؟ فإن يسأل عن الميثاق الذى أقر به فى صلب آدم . قلت : يا أبا القاسم وما هذا الميثاق الذى أقر به فى صلب آدم ؟ قال : حدثنى ابن عباس قال إن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خلقها إلى يوم القيامة فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وتكفل لهم بالأرزاق ثم أعادهم فى صلبه ، فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأول ، ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يقربه لم ينفعه الميثاق الأول ، ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول على الفطرة » .

فهذه الطرق كلها مما تقوى وقف هذا على ابن عباس والله أعلم .

وروى الإمام أحمد بإسناده عن مسلم بن يسار الجهنى : أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى** ﴾ فقال عمر بن الخطاب : سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال « إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذرية . قال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون » . فقال رجل : يارسول الله ففيم العمل ؟ قال رسول الله ﷺ « إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار »[1] رواه أبو داود والنسائى .

قال الترمذى عند تفسيره هذه الآية حدثنا عبدبن حميد حدثنا أبو نعيم حدثنا هشام بن سعد عن زيد ابن أسلم عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة ، وجعل بين عينى كل إنسان منهم وبيصا من نور . ثم عرضهم على آدم فقال : أى رب من هؤلاء ؟ قال هؤلاء ذريتك . فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه قال : أى رب من هذا ؟ قال هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود . قال : رب وكم جعلت عمره ؟ قال ستين سنة قال : أى رب قد وهبت له من عمرى أربعين سنة . فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت قال : أولم يبق من عمرى أربعون سنة . قال : أو لم تعطها ابنك داود . قال: فجحد آدم ، فجحدت ذريته ، ونسى آدم فنسيت ذريته ، وخطىء آدم فخطئت ذريته »[2] ثم قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح .

---

(١) أخرجه أبو داود فى السنة (١٦) . والترمذى فى تفسير (سورة ٧ : ٢) والإمام مالك فى القدر (٢) .

(٢) أخرجه الترمذى فى تفسير (سورة ٧ : ٢) . والإمام أحمد فى (١ : ٢٥١ ، ٢٩٩ ، ٣٧١) .

قال أبو جعفر الرازى : عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب فى قوله تعالى ﴿ **وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم** ﴾ قال : فجمعهم له يومئذ جميعاً ما هو كائن منه إلى يوم القيامة فجعلهم فى صورهم ، ثم استنطقهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق ، ﴿ **وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى** ﴾ قال : فإنى أشهد عليكم السموات السبع ، والأرضين السبع ، وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا ، اعلموا أنه لا إله غيرى ، ولا رب غيرى ، ولا تشركوا بى شيئاً وإنى سأرسل إليكم رسلا لينذروكم عهدى وميثاق ، وأنزل عليكم كتبى . قالوا : نشهد أنك ربنا وإلهنا ، لا رب لنا غيرك ، ولا إله لنا غيرك ، فأقروا له يومئذ بالطاعة ، ورفع أباهم آدم فنظر إليهم فرأى فيهم الغنى والفقير ، وحسن الصورة ودون ذلك ، فقال : يارب لو سويت بين عبادك ؟ قال : إنى أحببت أن أشكر . ورأى فيهم الأنبياء مثل السُّرُج ، عليهم النور ، وخصوا بميثاق آخر من الرسالة ، والنبوة فهو الذى يقول تعالى : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ﴾[1] الآية . وهو الذى يقول ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله** ﴾ ومن ذلك قال ﴿ هذا نذير من النذر الأولى ﴾[2] ومن ذلك قال : ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ﴾[3] الآية رواه عبد الله بن الإمام أحمد .

وبعد أن ساق ابن كثير هذه الأحاديث الشريفة ، عقب عليها بقوله : ثم قال قائلون من السلف والخلف إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد ، وقد فسر الحسن الآية بذلك . ولهذا قال ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم** ﴾ ولم يقل من آدم . ﴿ **من ظهورهم** ﴾ ولم يقل من ظهره ﴿ **ذريتهم** ﴾ أى جعل نسلهم جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن .

كقوله تعالى ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ﴾[4] وقال ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾[5] وقال ﴿ كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ﴾[6]

ثم قال ﴿ **وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى** ﴾ أى أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالا وقالا ، والشهادة تارة تكون بالقول كقوله ﴿ **قالوا شهدنا على أنفسنا** ﴾ وتارة تكون حالا كقوله ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾[7] أى حالهم شاهد عليهم بذلك ، لأنهم قائلون ذلك ، وكذا قوله تعالى ﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾[8].

كما أن السؤال تارة يكون بالقال وتارة يكون بالحال كقوله ﴿ وآتاكم من كل ماسألتموه ﴾[9].

قالوا : ومما يدل على أن المراد بهذا هذا أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم فى الإشراك ، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه .

---

(١) الآية ٧ من سورة الأحزاب .
(٢) الآية ٥٦ من سورة النجم .
(٣) الآية ١٠٢ من سورة الأعراف .
(٤) الآية ١٦٥ من سورة الأنعام .
(٥) الآية ٦٢ من سورة النمل .
(٦) الآية ١٣٢ من سورة الأنعام .
(٧) الآية ١٧ من سورة التوبة .
(٨) الآية ٧ من سورة العاديات .
(٩) الآية ٣٤ من سورة إبراهيم .

فإن قيل إخبار الرسول ﷺ به كاف فى وجوده ، فالجواب أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ماجاءتهم به الرسل من هذا وغيره ، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه الفطرة التى فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد ولهذا قال ﴿ **أن تقولوا** ﴾ أى لئلا تقولوا يوم القيامة ﴿ **إنا كنا عن هذا** ﴾ أى التوحيد ﴿ **غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا** ﴾ الآية .

لقد قطع الله المعاذير وأبطل حجج المجادلين بالباطل قال تعالى : ﴿ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون * أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهار وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لايعلمون * أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون * أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون *أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾(١)

هذه الأدلة الناطقة بواحدانية الله عز وجل ، الشاهدة بكماله المطلق ، وعزته القائمة ، ومملكته الدائمة ، لا يجادل فيها إلا كل أفاك أثيم ، إنها قائمة مع كل زمان ومكان ، وفى كل عصر ومصر ، السماء وارتفاعها ، والكواكب ومدارها ، والشمس وشعاعها ، والأرض واتساعها ، و البحار وأمواجها ، والجبال ورسوخها ، الكل يشهد بجلال الله ، ويقر بكماله ، ويعلن بشكره ، ولا يغفل عن ذكره ، فكل أثر يدل على مؤثر . وتحت هذه القاعدة تتدرج أدلة العناية والإتقان والارتباط والكمال والواجب .

الأرض حـولك والسماء اهـتزتا لروائـــع الآيات والآثار
من شـك فيه فنظـرة فى خلقـه تمحـو أثيم الشـك والإنكـار

إن أصحاب الفطر السليمة ، وأولى الأفئدة المستقيمة ، تقر لخالقها بالوحدانية ، وتصفه بصفات الكمال ، وتنزهه عن كل نقص ، إن الله أقام الأدلة لئلا يقول الناس يوم القيامة ، إنا كنا عن هذا غافلين ، أو يقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل فأشركنا مثلهم تقليدا لهم ﴿ **أفتهلكنا بما فعل المبطلون** ﴾ وهذه حجة داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ، فلا تقليد للمبطلين ، لأن الله تعالى زودنا بالعقل ، وأرسل إلينا رسلاً مبشرين ومنذرين ، وأنزل الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وقال ﴿ **وكذلك نفصل الآيات** ﴾ أى نبينها ونوضحها ، و﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ . أى ليهتدوا ويرجعوا عن ماهم عليه من الضلال والبهتان ، ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما ﴾(٢).

(١) الآيات ٦٠–٦٤ من سورة النمل .
(٢) الآية ١٦٥ من سورة النساء .

درس وعبرة

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

المفردات : ﴿ **التلاوة** ﴾ : القراءة . ﴿ **النبأ** ﴾ : الخبر الذى له شأن . ﴿ **وانسلاخه منها** ﴾ : كفره بها ونبذه لها من وراء ظهره ويقال لكل من فارق شيئا بحيث لاتحدثه نفسه بالرجوع إليه انسلخ منه . و﴿ **أتبعه** ﴾ : أدركه ولحقه . قال الجوهرى : يقال أتبعت القوم : إذا سبقوك فلحقتهم . و﴿ **من الغاوين** ﴾ : أى الراسخين فى الغواية بعد أن كان مهتديا . ﴿ **أخلد إلى الأرض** ﴾ : أى ركن إلى الدنيا ومال إليها . ﴿ **واللهث** ﴾ : بالفتح واللهاث بالضم التنفس الشديد مع إخراج اللسان ويكون لغير الكلب من شدة التعب والإعياء أو من العطش وللكلب فى كل حال سواء أصابه ذلك أم لا و ﴿ **تحمل عليه** ﴾: أى تشد عليه وتطرده . ﴿ **وساء الشىء** ﴾ : يسوء فهو سىء إذا قبح وساءه يسوءه مساءة والمثل : الصنعة . ﴿ **الذرء** ﴾ : لغة الخلق يقال ذرأ الله الخلق أوجد أشخاصهم . ﴿ **والخلق** ﴾ : التقدير أى إيجاد الأشياء بتقدير ونظام لاجزافا . ﴿ **والجن** ﴾ : الأحياء العاقلة المكلفة الخفية غير المدركة بالحواس والقلب يطلق أحيانا على المضغة الصنوبرية الشكل فى الجانب الأيسر من جسد الإنسان وأحيانا على العقل والوجدان الروحى الذى يسمونه أحيانا (بالضمير) وهو محل الحكم فى أنواع المدركات والشعور الوجدانى ، لما يلائم أو يؤلم ، وهو كثير بهذا المعنى فى الكتاب الكريم ﴿ سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ ﴿ قلوب يومئذ واجفة ﴾[1] ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾[2].

وسر استعمال القلب فى هذا المعنى مايراه الإنسان من انقباض أو انشراح حين الخوف والإشمئزاز ، أو حين السرور والابتهاج ﴿ **والفقه** ﴾ : العلم بالشىء والفهم له ، وفسره الراغب بالتوصل بعلم شاهد إلى علم

(١) الآية ٨ من سورة النازعات . (٢) الآية ٤٦ من سورة الحج .

غائب ، وقد استعمله القرآن فى مواضع كثيرة بمعنى دقة الفهم والتعمق فى العلم ، ليترتب عليه أثره وهو الانتفاع به ، ومن ثم نفاه عن الكفار والمنافقين لأنهم لم يدركوا كنه المراد مما نفى فقهه عنهم ففاتهم المنفعة مع العلم المتمكن من النفس .

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى قوله تعالى ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾ قال : هو رجل من بنى إسرائيل يقال له بلعم بن باعوراء .

وقال مالك بن دينار : كان من علماء بنى إسرائيل ، وكان مجاب الدعوة ، يقدمونه فى الشدائد، بعثه نبى الله موسى عليه السلام إلى ملك مدين يدعوه إلى الله ، فأقطه وأعطاه ، فتبع دينه وترك دين موسى عليه السلام .

وقال سفيان بن عيينة : عن حصين عن عمران بن الحارث عن ابن عباس : هو بلعم بن باعوراء .

وهكذا انسلخ ذلك الحبر من آيات الله ، فأصبح عرضة للفتن ، كما يصبح اللحم عرضة بعد سلخه للعوامل المختلفة ، لقد كانت الآيات تزينه كما يزين الجلد اللحم ، فأصبح بعد الانسلاخ شائهاً قبيحاً ، وما كان يستطيع أن يعود إليها لأن الانسلاخ يقيد ذلك فهل من المستطاع أن يعود الجلد إلى اللحم بعد انسلاخه .

﴿ **فأتبعه الشيطان** ﴾ أى صار الشيطان تابعا له وهو المتبوع كما قال القائل :

وكنت امرءاً من جند إبليس فارتقى ... بى الحال حتى صار إبليس من جندى

﴿ **فكان من الغاوين** ﴾ أى صار راسخاً فى الغواية والضلال ، ونعوذ بالله تعالى من الشقاء بعد السعادة ، ومن الضلالة بعد الهدى ، ومن الفقر بعد الغنى ، كما نعوذ به من شماتة الأعداء ، وعضال الداء .

عن حذيفة رضى الله عنه قال قال رسول ﷺ « إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رؤيت بهجته عليه ، وكان رداؤه الإسلام اعتراه إلى ما شاء الله ، انسلخ منه ونبذه وراء ظهره ، وسعى على جاره بالسيف ، ورماه بالشرك . قال : قلت : يا نبى الله أيهما أولى بالشرك المرمىّ أو الرامى قال : ﴿ بل الرامى ﴾ . هذا إسناد جيد .

قوله تعالى ﴿ **ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه** ﴾ هذا إخبار من الله جلت قدرته عن أن مشيئته صالحة لهداية هذا الذى غوى ، لكنه أبى وأصر واستكبر عن طاعة ربه ، وذلك عندما أخلد إلى الأرض ، ومال إليها مطمئنا بها قلبه ، واتبع هواه ، والهوى هو نوازع النفس إلى مسالك الشر .

وانظر إلى تعبير القرآن الكريم عن الدنيا بالأرض ، فكل من يهوى إليها ويرتبط بها ناسياً ربه وآخرته

فقد حق عليه قوله تعالى ﴿ ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى ﴾[1] وقوله جل شأنه ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون * أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾[2].

أما هوى النفس فقد أعيى الأطباء قال تعالى : ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾[3].

ولقد بين الله تعالى حال هؤلاء المارقين الناكصين على أعقابهم الذين انقلبوا خاسرين وارتدوا على ادبارهم بين الله حالهم فى قوله ﴿ **فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث** ﴾.

إنها صفات الذين تمرغوا فى أوحال المادة ، تراهم دائما فى تعب إن أعطوا طمعوا فى المزيد لأن قلوبهم لا تعرف الرضا وإن منعوا إذا هم يسخطون ، فهم بين الطمع والسخط فى تعب ونصب لو كان لاحدهم واديان من مال لابتغى ثالثاً ولا يملأ عينيه إلا التراب ، إنهم كالكلب إن حملت عليه وطردته وزجرته يلهث ويتنفس بصعوبة وتعب ، وإن أنت تركته فإنه يلهث ويتنفس بصعوبة فهو لاهث دائما ، كذلك الأشقياء من أهل الدنيا.

ولما فى هذه القصة من عبرة فإن الله جل وعلا أمر حبيبه أن يقصها على كل عاقل ، قال تعالى : ﴿ **فاقصص القصص لعلهم يتفكرون** ﴾ بعدما بين له سبحانه أن هذا المثل مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فتلك صفتهم .

ثم قال سبحانه : ﴿ **ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا** ﴾ أى ساءت تلك الصفة وقبح شأن هؤلاء ، فإن الله تعالى بين لهم الهدى من الضلال ، فاستحبوا العمى على الهدى ، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، قال تعالى ﴿ **وأنفسهم كانوا يظلمون** ﴾

إن المهتدى هو الذى يهديه الله ، فهذا هو السعيد الذى يعيش فى كنف الله ورعايته ، يصون حدوده ، ويمتثل أمره ، ويجتنب نهيه ، أما من ضل فقد غوى وخسر .

قال تعالى ﴿ **من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون** ﴾ وما أكثرهم من الجن والإنس ، إنهم كثير إنهم عطلوا منافذ المعرفة ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، فقد ختم عليها ، ولهم أعين لا يبصرون بها إذ عليها غشاوة ،ولهم آذان لا يسمعون بها لأن فيها وقرا ، ومن بينهم وبين النور حجاب ، إنهم كالأنعام بل هم أضل.

قال تعالى ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** ﴾.

---

(١) الآية ٨١ من سورة طه . (٢) الآيتان ٧،٨ من سورة يونس . (٣) الآية ٢٦ من سورة ص .

وقال جل شأنه ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون * ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾[١].

وقال جل شأنه ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون * ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴾[٢] وقال جل شأنه ﴿ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون ﴾[٣].

إنهم أضل من الدواب لأن الدابة لا تنكر جميل صاحبها ، فهى وفية له لا تجحد فضله عليها ، أما هؤلاء فقد جحدوا شكر المنعم ، وبدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار .

أسماء الله الحسنى

وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾

المفردات : ﴿ **الحسنى** ﴾ : مؤنث الأحسن ﴿ **يلحدون** ﴾ : الإلحاد هو الميل عن الطريق الحق .

روى أن بعض المسلمين دعا الله فى صلاته ودعا الرحمن فقال المشركون محمد وأصحابه يزعمون أنهم يعبدون رباً واحداً ، فما بال هذا يدعوا اثنين ؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية .

﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها** ﴾ وقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر »[٤].

والذى عليه أهل العلم أنها جمعت من القرآن والسنة ، فهى توقيفية ، ولكنها لا تنحصر فى تسعه وتسعين ، بدليل حديث ابن مسعود عن رسول الله أنه قال : « ماأصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال : اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فىّ حكمك ، عدلُ فى قضائك ، أسالك بكل اسم هولك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى ، إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدل مكانه فرحاً ﴾[٥].

وذروا الذين يكذبون فى أسمائه ، ويسمونه بما لم يتسم به ، ولم ينطق به فى كتاب الله ، ولا سنة رسوله ، هؤلاء سيجزون بما كانوا يعملون .

---

(١) الآيتان ٢٢،٢٣ من سورة الأنفال . (٢) الآيتان ٢٠،٢١ من سورة الأنفال . (٣) الآية ٥٥ من سورة الأنفال .

(٤) أخرجه البخارى فى الدعوات (٦٩) . ومسلم فى الذكر (٥) وابن ماجه فى الدعاء (١٠) .

(٥) أخرجه الإمام أحمد فى (١:٣٩١،٤٥٢) .

ومعنى أن أسماءه توقيفية أنه لا يسمى سخياً ، وإن سمي جواداً . ويسمى رحيماً ولا يسمى رفيقاً ، ويسمى عالماً ولا يسمى عاقلا . وفى القرآن ﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾[1] أفتسمى الله مخادعاً ؟ حاش لله افتحسبه مكاراً ؟ حاش لله بل يدعى بأسمائه ولا نلحد فيها أبداً .

المهتدون والضالون

وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

المفردات : ﴿ **يهدون** ﴾ : يرشدون الناس إلى الحق والخير ﴿ **يعدلون** ﴾ : يجعلون الأمور متعادلة لا زيادة فيها ولا نقصان على ما ينبغى ﴿ **سنستدرجهم** ﴾ : الاستدراج من الدرجة وهى المرقاة بمعنى الصعود والنزول درجة بعد درجة ، والمراد سنأخذهم درجة بعد درجة بإدنائهم من العذاب شيئاً فشيئاً ﴿ **وأملى لهم** ﴾ : من الإملاء وهو الإسهال ﴿ **كيدى** ﴾ : الكيد والمكر هو التدبير الخفى الذى يقصد به غير ظاهره حتى ينخدع المكيد ، والمتين القوى من المتن وهو الظهر (يعمهون) يترددون فى حيرة وعمى . بعد أن ذكر الله أنه خلق لجهنم كثيراً من الخلق لا قلوب لهم ولا أعين ولا آذان يصلون بها إلى الخير . ثم ذكر بعد ذلك ما يجعل الإنسان قوى الإيمان . ذكر هنا أن فى أمة الدعوة المحمدية فريقين : مهديين وضالين ، مع ذكر وجوب الفكر والنظر فى ملكوت السماء والأرض علنا نصل إلى الخير . وبعض من خلقنا ، وأرسلنا لهم الرسل خاصة أمة الدعوة المحمدية أمة يهدون بالخير ، ويرشدون إليه ، وبه يحكمون فيما يعرض لهم حتى تكون أمورهم متعادلة ، لا زيادة فيها ولا نقصان ، ويكونوا أمة وسطاً عدولاً ، كما أخبر عنهم القرآن ، روى عن على بن أبى طالب قال : لتفترقن هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا فرقة، يقول الله ﴿ **وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون** ﴾ فهذه هى التى تنجو من هذه الأمة .

والذين كذبوا باياتنا ندعهم فى الضلال تائهين ، ونستدرجهم من حيث لا يعلمون ، ونملى لهم بإعطاء النعم استدراجاً حتى لا يرعووا عن غيهم ؟ مع أنا نمهلهم فلا نرسل لهم المحذرات والمنبهات ، وما

(١) الآية ١٤٢ من سورة النساء .

علموا أن سنة الله فى الخلق لا تتغير ، وأن الله يملى لهم ويمدهم بالمال والنعم ، حتى يغتروا ولا يتنبهوا ، كيداً لهم ومكراً بهم ، لا حباً فيهم ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين * نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾[١] نعم . ﴿ إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ﴾ .

وهاهم أولاء المشركون ظلوا مغرورين بأن الحرب يومان يوم لنا ويوم علينا ، معتزين بقوتهم وكثرة عددهم ، وبقلة عدد المسلمين ، وما علموا أن هذا مكر بهم وكيد لهم ، ولقد كان فتح مكة آية على ذلك .. أكذبوا الرسول ولم يتفكروا فى شأنه وشأن دعوته ؟ إنهم إن تفكروا فى ذلك أوشكوا الابد أن يعرفوا الحق ، وأن صاحبهم ليس به جنة . ولقد حكى القرآن عنهم : ﴿ أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق ولكن أكثرهم للحق كارهون ﴾[٢]. ﴿ يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾[٣].

كذبوا وضلوا ، إن هو إلا نذير مبين بين يدى عذاب شديد ، وهو منذر ناصح ، ومبلغ أمين ، وكيف لا نعرفون هذا وهو صاحبكم وأنتم أدرى الناس به ؟ .

أكذبوا الرسول ولم ينظروا فى هذه العوالم المحكمة الدقيقة ، المنظمة البديعة ، فإن هذا دليل على الوحدانية الكاملة ، والعلم التام والقدرة .

ولو نظروا بعين البصيرة لاهتدوا إلى الخير ، أو لم ينظروا فى كل ما خلقه الله ، وأن الحال والشأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ، وحان وقت قدومهم على ربهم بالأعمال .

لو نظروا لاحتاطوا وعملوا لذلك اليوم ، حتى ينالوا الجزاء الأوفى . لعل أجلهم قد اقترب فما لهم لا يبادرون إلى التصديق والإيمان بالقرآن والنبى ﷺ قبل فوات الفرصة ، وماذا يتنظرون بعد وضوح الحق ؟ وبأى حديث بعده يؤمنون ؟ .

هؤلاء فقدوا الاستعداد للخير والهدى والإيمان بالنبى ، والعمل بالقرآن ، فكانوا هم الضالين ﴿ **ومن يضلل الله فلا هادى له ويذرهم فى طغيانهم** ﴾ يترددون ، وفى باطلهم ينغمسون ، ألا تعلم أن القلب يصدأ كما يصدأ الحديد ، وأن العمل الفاسد يجعل على القلب حاجزاً سميكا حتى لا يهتدى إلى الخير أبداً ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾[٤].

علم الساعة عند ربى

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

(١) الآيتان ٥٥، ٥٦ من سورة المؤمنون .
(٢) الآية ٧٠ من سورة المؤمنون .
(٣) الآية ٦ من سورة الحجر .
(٤) الآية ١٤ من سورة المطففين .

المفردات : ﴿ **الساعة** ﴾ : هى فى اللغة جزء غير معين من الزمن ، وعند الفلكيين جزء من أربع وعشرين من اليوم ، والمراد بها هنا الوقت الذى يموت فيه كل حى ويضطرب نظام العالم أى عند النفخة الأولى للصور ﴿ **أيان مرساها** ﴾ : متى إرساؤها واستقرارها ﴿ **لا يجليها** ﴾ : لا يظهرها ولا يكشفها ﴿ **حفى** ﴾ : مبالغ فى السؤال عنها . قد تكلم القرآن عن أجل الفرد فى قوله ﴿ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ﴾ فناسب بعده أن يتكلم عن الساعة العامة التى فيها نهاية الدنيا كلها .

يسألونك يا محمد عن الساعة متى تكون ؟ ، ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد ﴾[1] وفى التعبير بالإرساء إشارة إلى أن قيام الساعة إنهاء هذه الحركة الدائبة فى السماوات والأرض .

قل لهم إنما علمها عند ربى وحده ، وإليه يرجع الأمر كله لا يجليها لوقتها ، ولا يظهر أمرها ، ولا يكشف خفاء علمها إلا هو وحده ، فلا يطلع أحداً من خلقه على وقتها ، ولو كان ملكا مقربا ، أو نبيا مرسلا ، عظم أمرها عند الملائكة والثقلين فى السماء والأرض لخفاء وقتها ، ولهول وصفها وشدة وقعتها ، فهم مضطربون خائفون ، لا تأتيكم أيها الناس إلا بغتة وفجأة ، أى منهمكون فى الدنيا وتعميرها .

عجبا لهم يسألونك ملحين عنها كأنك حفى عنها ، ومبالغ فى السؤال عنها . قل لهم إنما علمها عند الله عالم الغيب والشهادة .

ولكن أكثر الناس لا يعلمون السر فى إخفائها ، فلو عُلمت لاضطرب نظام الكون ، واختل العمران ، وهكذا يخفى الله ليلة القدر ، وساعة الإجابة ، لحكم هو يعلمها ، ولينشط الناس فى طلبها ، والعمل لها فى وقت أكثر ، وللساعة علامات وأشراط وردت فى الصحيح من السنة ، ويقال : لها علامات صغرى وكبرى .

الرسول إنسان لا يملك شيئاً بل هو نذير وبشير

قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

المفردات : ﴿ **الغيب** ﴾ : هو ما غاب عنا ، وهو حقيقى لا يعلمه أحد ، وإضافى يعلمه بعض الخلق كالأنبياء والرسل ﴿ **الخير** ﴾ ما يرغب فيه سواء كان مادياً كالمال أو معنويا كالعلم ﴿ **والسوء** ﴾ : ما يرغب عنه .

سألوا النبى وألحفوا فى السؤال تناسب أن يبين القرآن حقيقة الرسالة .

هذا هو القول الفصل ، الذى ليس بالهزل ، مفخرة من مفاخر الإسلام ، وأسس من أسسه السليمة ،

(١) الآية ١٨ من سورة الشورى .

حارب القرآن بهذه الآية وأمثالها أفكاراً جاهلية وعقائد وثنية ، وانظر إلى هنا ، وإلى ما يفهمه المسيحيون عن عيسى عليه السلام نعم ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾[1].

قل يا محمد أنا بشر ، شرفت بالرسالة ، وحملت تلك الأمانة ، فلا أملك لنفسى أى نفع كان ، ولا أدفع عن نفسى أى ضرر كان ، إلا ما شاء الله ، وأنا بشر لا أعلم الغيب ، وإنما الغيب عند الله وحده ، فكيف تسألوننى عن الساعة كأنى حفى بها ؟ أما لو كنت أعلم الغيب حقيقة لا ستكثرت من الخير ، وما مسنى السوء أبداً ، والواقع غير هذا . إذ أنا بشر كبقية الناس ، شرفنى الله بالرسالة فقط ، وما أنا إلا نذير لكم وبشير ﴿ لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لُدًّا ﴾[2].

والخلاصة أن الرسل خلق من خلقه وعباد مكرمون لا يشاركون الله فى صفاته ولا سلطان لهم على علمه وتدبيره ، وشرفهم الله بالرسالة وهم القدوة الصالحة للعباد فى الدنيا ..

حقيقة التوحيد

* هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾

المفردات : ﴿ **ليسكن إليها** ﴾ : ليطمئن ويسكن من الاضطراب النفسى ﴿ **تغشاها** ﴾ : أتاها لقضاء ما تطلبه الغريزة الجنسية ﴿ **حملت** ﴾ : علقت منه والحمل ما كان فى بطن أو على شجرة والحمل ما كان على ظهر ﴿ **فمرت** ﴾ : استمرت إلى وقت ميلاده من غير سقوط ﴿ **فلما أثقلت** ﴾ : حان وقت ثقلها وقرب وضعها ﴿**صالحا** ﴾ : المراد نسلا صالحاً فى الجسم والفطرة .

هذه سورة بدأت بالكلام على القرآن والتوحيد ثم تبع ذلك كلام على النشأة الأولى وما تبع ذلك ، ثم الكلام على قصص الأنبياء خصوصاً موسى ، وها هو ذا يختمها بالكلام على التوحيد وعلى القرآن .

هو الذى خلقكم يابنى آدم من جنس واحد ، وطبيعة واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن إليها ، ويطمئن بها ، فإن الجنس إلى جنسه ميال ، وجعل منها زوجها حتى إذا بلغا سن الحلم وهو السن التى معها تظهر الغريزة الجنسية فى الرجل والمرأة . وجدا أنفسهما - خاصة الرجل - مضطرباً ومحتاجاً إلى الزوجة لتهدأ نفسه وتسكن من اضطرابها ، وبهذا وحده يتحقق بقاء النوع الإنسانى .

(١) الآية ١٩ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ٩٧ من سورة مريم .

فلما تغشاها واتصل بها الاتصال الجنسى المعروف حملت منه حملا كان خفيفاً فى أول الأمر لم تشعر به ، فلما أثقلت وصارت ذا ثقل بكبر الولد فى بطنها ، وحان وقت الوضع ، دعوا الله ربهما مقسمين لئن أتيتنا ولداً صالحاً تام الخلقة قوى البنية سليم الفطرة لنكونن لك يارب من الشاكرين .

وقد آتاهما الله ذلك ، وكانت الفطرة لكل مخلوق الميل إلى الاسلام والتوحيد فلما آتاهما النسل الصالح جعلا أى بعض بنى آدم من الذكور والاناث له شركاءفيما آتاهما ، واتجها إلى غير الله الذى أعطاهما ، تعالى الله عما يشركون .

وقد رأى بعض المفسرين فى هذه الآية أن المراد خلقكم يابنى آدم من نفس واحدة هى آدم ، وجعل منها زوجها وهى حواء ، وأن الشرك كان من بعض أولادهما ككفار مكة واليهود والنصارى ، وقد نسب إليهما ، والمراد أولادهما بدليل ، ﴿ **فتعالى الله عما يشركون** ﴾ وفى الكشاف أن المراد بالزوجين الجنس لا فردان معينان .

ثم أخذ القرآن فى نقاش هؤلاء المشركين ، أيشركون بالله شيئا لا يخلق أبداً أى شىء ؟ بل إنه لا يملك نفعا ولا ضراً لنفسه ولا لغيره ، والحال أن ما يشركون به من صنم أو وثن هو مخلوق ضعيف إن يسلبه الذباب شيئاً لا يستطيع إنقاذه منه ولا يستطيع لهؤلاء المشركين نصراً فى أى ميدان ، وإن تدعوهم إلى هدايتكم لا يستجيبون لكم وكيف يستجيبون .

وكيف يداوى القلب من لا قلب له

يستوى عندهم دعاؤكم وبقاؤكم صامتين ، والإله المعبود ، والرب الموجود لا يكون بهذا الوضع أبداً فهو السميع البصير ، العليم الخبير ، الناصر القادر سبحانه وتعالى .

حقيقة الأصنام والأوثان

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

المفردات : ﴿ **تدعونه** ﴾ : الدعاء النداء وغالبا يكون لدفع ضر أو جلب خير والمراد تعبدون ﴿ **يبطشون** ﴾ : يصولون بها ﴿ **فلا تُنْظرون** ﴾ : أى تمهلون . هذا تمام للكلام السابق وهكذا شأن

القرآن فى إثبات التوحيد ونفى الشرك .

هؤلاء الذين تعبدونهم من دون الله هم مخلوقون مثلكم ، فلا يصح أن يكون المخلوق محل عبادة وتقديس من مخلوق مثله .

وإن تعجبوا فعجب حالكم ، تستكثرون الرسالة على بشر منكم خصه الله بالعلم والمعرفة ، وقوة اليقين ونور البصيرة ، ثم تعبدون من دون الله حجارة ، وإن كنتم صادقين فادعوهم ، وإن كانوا كذلك فليستجيبوا لكم .

ولكن كيف يكون ذلك ؟

وهم أحط درجة ممن يعبدونهم ، فليس لهم أرجل يمشون بها ، وليس لهم أيد يصولون بها ، وليس لهم أعين يبصرون بها ، ولا آذان يسمعون بها ، إذ هم حجارة صماء ، أو صنيع من طين وماء ، أو من عجوة ، أو حلاوة . كصنم بنى حنيفة .

أكلت حنيفة ربها عام التقحم والمجاعة

على أن النبى ﷺ أمر بأن يتحداهم ويدعوهم لأمر عملى فقيل له : قل لهم يا محمد : ادعوا شركاءكم وآلهتكم من دون الله ، ثم تعاونوا معهم على أن تكيدوا لى وتوقعوا بى المكروه بأى شكل كان ولا تمهلون ، ومع هذا لم يعملوا شيئاً فيه . وهذا رد عليهم فى قولهم إنا نخاف عليك من آلهتنا . والرسول يعلل ذلك بقوله : إن متولى أمرى هو الله ولينا ، وهو ربنا الذى أنزل الكتاب الذى يدعو إلى التوحيد والبر والصدق ، وهو الذى يتولى الصالحين من عباده، أما أنتم أيها المشركون فوليكم الشيطان ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾[1]

والذين تدعونهم من دون الله ،وتخصونهم بالعبادة والتقديس لا يستطيعون لكم نصراً ، حتى ولا أنفسهم ينصرون ، بل وإن تدعوهم إلى أن يهدوكم إلى سواء السبيل لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك والحال أنهم لا يبصرون شيئاً أفيليق بكم إن كنتم عقلاء أن تتخذوا هؤلاء آلهة ؟

من خلق القرآن فى معاملة الناس والشيطان

خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

(١) الآية ٢٥٧ من سورة البقرة .

المفردات : ﴿ **العفو** ﴾ : ما أتى عفواً وسهلا من غير كلفه ولا مشقة ﴿ **ينزغنك** ﴾ : النزغ كالنخس والوكز هو إصابة الجسم بشيء محدد كالإبرة والمهماز والمراد وسوسة الشيطان ﴿ **فاستعذ بالله** ﴾ : المراد الجأ إليه وتذكره ﴿ **طائف** ﴾ : لمة منه وطاف : أى ألم ﴿ **يمدونهم** ﴾ :يكونون مدداً لهم .

هذه هى آسس المعاملة الحسنة ، ودعائم الخلق الكامل الذى به يرضى الناس عن الإنسان ، ورضا الناس من رضا الله ، فألسنة الخلق أقلام الحق ، وبهذه الأمور تجتمع القلوب النافرة ، والنفوس الهائمة : خذ ما أتى من الناس عفوا ، لاتكلفهم بما يشق عليهم ويستعصى من الأفعال بل كن سمحا سهلاً « يسروا ولا تعسروا »[1] حديث شريف .

خـــذ العفو منى تستديمى مـــودتى
ولا تنطقـــى فى ســـورتى حـــين أغضـــب

ولله در معاوية حيث يقول : لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ، إن شدوها أرخيتها ، وإن أرخوها شددتها .

وأمر بالمعروف الذى تعاون عليه المسلمون من كل ما أمر به الشرع ، فالمعروف اسم جامع لكل خير من طاعة وإحسان ، وأعرض عن الجاهلين ، نعم أعرض عن الجاهل الأحمق واجعل كأنك لم تسمع ولم يقل ، وعلى العموم لكل صنف من الناس معاملة ، ولا تنس قوله تعالى : ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ﴾[2].

هذه جوامع الكلم : خذ العفو ،وأمر بالعرف ،وأعرض عن الجاهلين ، وجوامع الخلق ولقد صدقت السيدة عائشة حيث تقول : كان خلقه القرآن .

أما معاملة الشيطان العدو اللدود فإما ينزغنك منه نزغ ، أو يُثر فيك داعية من دواعى الشر كالغضب والشهوة حتى يجعلك ثائراً متأثراً ، كتأثر الدابة إذا نخست بالمهماز (المنخاز) .

فاعلم أن العلاج هو اللجوء إلى الله ، والتوجه إليه بالقلب ، والاستعاذة بالله من شر الشيطان ووسوسته ، والانتقال من هذا الجو وتغييره بقدر الإستطاعة ، فالله سريع بكل دعاء ، عليم بكل قصد ونية .

واعلم أن الشيطان أقسم ليغوينهم جميعاً إلا العباد المخلصين فإنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . وقد روى عن النبى ﷺ ما معناه « ما منكم أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن قالوا : وأنت يا رسول الله ؟ قال وأنا إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم »[3]!

إن الذين اتقوا الله وخافوا منه إذامسهم طائف من الشيطان ، وألمت بهم لمة منه تذكروا الله وما اعده

(١) أخرجه البخارى فى المغازى (٦٠) وفى الأحكام (٢٢) . والدارمى فى المقدمة (٢٤) .
(٢) الآية ٢٣٧ من سورة البقرة .
(٣) أخرجه مسلم فى المنافقين (٦٩) . والدارمى فى الرقاق (٢٥) . والإمام أحمد فى (١:٣٨٥،٣٩٧،٤٠١،٤٦٠) .

للمتقين الأبرار ، وما أعد للعصاه الفجار ، فإذا هم مبصرون طريق الحق والخير ، فالمؤمن الكامل قوى الإيمان كالجسم الصحيح ، لا تدخله جراثيم المرض ، وإن دخلت ماتت ، كذلك المؤمن لا تدخله الوساوس ، وإن دخلت تذكر وطردها،وكل إنسان يشعر بدوافع للخير ، ودوافع للشر فالأول لمة الملك ، والثانية لمة الشيطان .

قال النبى ﷺ « إن للشيطان لمة وللملك لمة فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق واما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد منكم ذلك فليعلم أنه من الله وليحمد الله على ذلك ومن وجد الأخرى فليستعذ بالله من الشيطان »[١] ثم قرأ:﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ﴾[٢] .

وإخوانهم وهم الجهلاء غير المتقين الله-الشياطين يمدونهم وينصرونهم ويتعاونون معهم على الاثم والعدوان ثم هم لا يقصرون أبدا فى ذلك .

القرآن من عند الله

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾

المفردات : ﴿ **لولا اجتبيتها** ﴾ : هلا جمعتها من تلقاء نفسك واختلقتها ؟

كانوا طلبوا من النبى ﷺ آيات كونية خاصة ، فلما لم يجابوا إلى طلبهم قالوا على سبيل التعنت هلا اختلقت آية وجمعتها من عندك ، يقصدون أن كل ما ينزل من القرآن إنما هو من عند محمد ، قل لهم يا محمد ﴿ **إنما أتبع ما يوحى إلى من ربى** ﴾ فقط وليس لى أن أخترع ، أو آتى شيئا من عندى ، إنما أنا رسول ولست قادراً على إيجاد الآيات التى طلبتموها، وما لكم تطلبون غير هذا القرآن وهو بصائر من ربكم ، وحجج وآيات واضحة دالة على صدقه ، وأنه من عند الله ، وهو كالبصائر للقلوب التى تنير طريق الفلاح ، وهو هدى ورحمة ولكن لقوم يؤمنون بالله وبالحياة الآخرة فمن آمن به وحافظ عليه وحكم به فأولئك هم المفلحون دون سواهم .

من آداب استماع القرآن والذكر

وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

(١) أخرجه الترمذى فى تفسير (سورة ٢:٣٥) .
(٢) الآية ٢٦٨ من سورة البقرة .

المفردات : ﴿ **فاستمعوا** ﴾ : الاستماع يزيد عن السمع بالإنصات والقصد والنية ﴿ **تضرعا** ﴾ : من الضراعة والذلة والخضوع ﴿ **وخيفة** ﴾ : خائفين ﴿ **بالغدو** ﴾ : الغدو جمع غدوة وهى ما بين الفجر إلى طلوع الشمس ﴿ **والآصال** ﴾ : جمع أصيل وهو ما بعد العصر إلى الغروب .

إذا قرىء القرآن الكريم فاستمعوا له بإنصات وأدب ، وقصد مع السكون والخشوع رجاء أن ترحموا من الله فإنه لا يستمع لكلامه بأدب وحسن استماع إلا المخلصون الذين فى قلوبهم نور الإيمان ، وبرد اليقين ، أما من أهمتهم الدنيا وأقضت مضاجعهم حتى أصبحت قلوبهم خلوا من نور الإيمان ، تراهم عند سماع القرآن لاينصتون أبدا ، بل ويتكلمون فى توافه الأمور . والآية عامة فى سماع القرآن فى الصلاة والخطبة وغيرها .

أيليق بالمسلم أن يتكلم فلا يستمع ويتكلم جاره فيستمع ؟

واذكر ربك فى نفسك ، وذلك بذكر أسمائه وصفاته وشكره واستغفاره ، والمهم التذكير بالقلب ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾[1] .

اذكره ضارعاً متذللاً خاضعاً خائفا راجياً ثوابه مع إتمام الاسم وعدم استعمال مايخل به،اذكره بلسانك وقلبك ذكراً دون الجهر وفوق السرأى اذكره وسطا بين هذا وذاك ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا ﴾[2]

وأنسب الأوقات للذكر وقت الصباح ، والمساء ، وبقية النهار للعمل ، وتحصيل الرزق .

وإياك أيها المسلم أن تكون من الغافلين عن ذكر الله بقلبك واعلم أن الذين عند ربك من الملائكة والمقربين لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه فى الليل والنهار وله وحده يسجدون فكيف بك ؟

سجود التلاوة : يكون عندما يسمع المسلم هذه الآية وأمثالها التى ستأتى وقد شرعه الله لنا إرغاماً لمن أبى السجود من المشركين واقتداء بالملائكة المقربين،وروى أن النبى كان يقول فى سجوده:« اللهم لك سجد سوادى وبك آمن فؤادى اللهم ارزقنى علماً ينفعنى ، وعملا يرفعنى » .

وروى أيضا:« إذا قرأ ابن آدم آية السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى فيقول : يا ويله ، أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فعصيت فلى النار »[3].

(١) الآية ٢٨ من سورة الرعد .

(٢) الآية ١١٠ من سورة الإسراء .

(٣) أخرجه مسلم فى الإيمان (١٣٣) . وابن ماجه فى الإقامة (٢٠١) . والإمام أحمد فى (٢:٤٤٣) .

سورة الأنفال

قال صاحب البصائر : اعلم أن هذه السورة مدنية بالإجماع ، وعدد آياتها خمس وسبعون ، وعدد كلماتها ألف ومائة وخمس وتسعون كلمة . وحروفها خمسة آلاف ومائتان وثمانون .

ولهذه السورة اسمان : سورة (الأنفال) ،لكونها مفتتحة بها ، ومكررة فيها ، وسورة (بدر) لأن معظمها فى ذكر حرب بدر فأجرى بها .

مقصود السورة

قطع الأطماع الفاسدة من الغنيمة التى هى حق لله ولرسوله ، ومدح الخائفين الخاشعين وقت سماع القرآن ، وبعث المؤمنين حقاً ، والإشارة إلى ابتداء حرب بدر ، وإمداد الله تعالى صحابة نبيه بالملائكة المقربين ، والنهى عن الفرار من صف الكفار ، وأمر المؤمنين بإجابة الله ورسوله ، والتحذير عن الفتنة ، والنهى عن خيانة الله ورسوله ، وذكر مكر كفار مكة فى حق النبى ﷺ ، وتجاسر قوم منهم باستعمال العذاب ، وذكر إضاعة نفقاتهم فى الضلال والباطل ، وبيان قسم الغنائم ، وتلاقى عساكر الإسلام ، وعساكر المشركين ، ووصية الله المؤمنين بالثبات فى صف القتال ، وغرور إبليس طائفة من الكفار ، وذم المنافقين فى خذلانهم لأهل الإيمان ، ونكال ناقضى العهد ليعتبر بهم آخرون ، وتهيئة غدر المقاتلة والمحاربة والميل إلى الصلح عند استدعائهم الصلح ، والمن على المؤمنين بتأليف قلوبهم ، وبيان عدد عسكر الإسلام ، وعسكر الشرك ، وحكم أسرى بدر ، ونصرة المعاهدين لأهل الإسلام ، وتخصيص الأقارب وذوى الأرحام بالميراث ، فى قوله:﴿ **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض** ﴾ إلى آخر السورة .

المتشابهات

قوله ﴿ **كدأب آل فرعون والذين من قبلهم** ﴾ ثم قال بعد آية : ﴿ **كدأب آل فرعون والذين من قبلهم** ﴾ أجاب عن هذا بعض أهل النظر وقال : ذكر فى الآية الأولى عقوبته إياهم عند الموت ، كما فعله بآل فرعون ومن قبلهم من الكفار ، وذكر فى الثانية ما يفعله بهم بعد موتهم .

قال الخطيب : الجواب عندى : أن الأول إخبار عن عذاب لم يمكن الله أحداً من فعله ، وهو ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند نزع أرواحهم ، والثانى إخبار عن عذاب مكن الناس من فعل مثله ، وهو الإهلاك والإغراق .

قال تاج القراء : وله وجهان [آخران] محتملان أحدهما : كدأب آل فرعون فيما فعلوا ، والثانى : كدأب آل فرعون فيما فعل بهم فهم فاعلون فى الأول ، مفعولون فى الثانى .

والوجه الآخر : أن المراد بالأول كفرهم بالله ، وبالثانى تكذيبهم بالأنبياء ، لأن تقدير الآية : كذبوا الرسل بردهم آيات الله . وله وجه آخر وهو أن يجعل الضمير فى (كفروا) لكفار قريش على تقدير :

كفروا بآيات ربهم كدأب آل فرعون والذين من قبلهم ، وكذلك الثانى كذبوا بآيات ربهم كدأب آل فرعون .

قوله ﴿ **الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله** ﴾ هنا بتقديم أموالهم وأنفسهم ، وفى براءة بتقديم (فى سبيل الله) لأن فى هذه السورة تقدم ذكر المال والفداء والغنيمة فى قوله ﴿ **تريدون عرض الدنيا** ﴾ و﴿ **لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم** ﴾ أى من الفداء .

﴿ **فكلوا مما غنمتم** ﴾ فقدم ذكر المال . وفى براءة تقدم ذكر الجهاد وهو قوله ﴿ **ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم** ﴾ وقوله : ﴿ **كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله** ﴾ فقدم ذكر الجهاد . وذكر هذه الآى فى هذه السورة ثلاث مرات : فأورد فى الأولى ﴿ **بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله** ﴾ وحذف من الثانية ﴿ **بأموالهم وأنفسهم** ﴾ اكتفاء بما فى الأولى وحذف من الثالثة ﴿ **بأموالهم وأنفسهم** ﴾ وزاد : ﴿ **فى سبيل الله** ﴾ اكتفاء بما فى الآيتين . **مناسبتها لما قبلها** : أنها فى بيان أحوال النبى ﷺ مع قومه ، وسورة الأعراف مبينة لأحوال الرسل مع أقوالهم .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

المفردات : ﴿ **الأنفال** ﴾ : واحدها نفل (بالتحريك) من النفل بالسكون وهو الزيادة على الواجب ومنه صلاة النفل والمراد به هنا الغنيمة،وقيل:الغنيمة كل ما حصل مستغنما بتعب أو بغير تعب وقبل الظفر أو بعده والنفل يحصل للإنسان قبل القسمة من الغنيمة ﴿ **والبين** ﴾ : يطلق على الاتصال والافتراق ، وعلى كل ما بين طرفين كما قال : ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾[1] وذات البين : الصلة التى تربط بين شيئين ﴿ **والوجل** ﴾ : الفزع والخوف ﴿ **والدرجات** ﴾ : منازل الرفعة ومراقى الكرامة .

نزلت هذه الآيات فى غنائم غزوة بدر ، إذ تنازع فيها من حازها من الشبان وسائر المقاتلة ، فقد روى

(١) الآية ٩٤ من سورة الأنعام .

أبو داود والنسائى عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال : « من قتل قتيلا فله كذا وكذا ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا » فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات ، وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم ، فقالت المشيخة للشبان : إنا كنا لكم ردءاً ولو كان منكم شيء للجأتم إلينا ، فاختصموا إلى النبى ﷺ فنزلت :

﴿ **يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول** ﴾[1] .

وروى أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى عن سعد بن أبى وقاص : أنه قتل سعيد بن العاص وأخذ سيفه ، واستوهبه النبى ﷺ فمنعه إياه ، وأن الآية نزلت فى ذلك فأعطاه إياه لأن الأمر كله إليه ﷺ .

﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ أى يسألونك أيها الرسول عن الأنفال لمن هى ؟ أللشبان أم للشيوخ ؟ أو للمهاجرين هى أم للأنصار؟﴿ **قل الأنفال لله والرسول** ﴾ أى قل لهم الأنفال لله ، يحكم منها بحكمه ، وللرسول يقسمها بحسب حكم الله تعالى ، وقد قسمها ﷺ بالسواء .

وقد بين الله بهذا أن أمرها مفوض إلى الله ورسوله ، ثم بين مصارفها ، وكيفية قسمتها فى آية الخمس ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه** ﴾ إلخ .

وللإمام أن ينفل من شاء من الجيش ما شاء قبل التخميس ، وقد روى عن سعد بن أبى وقاص أنه قال : « قتل أخى عُمَير يوم بدر فقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه فأعجبنى فجئت به إلى النبى ﷺ ، فقلت : إن الله شفى صدرى من المشركين فهب لى هذا السيف ، فقال لى عليه الصلاة والسلام : ليس هذا لى ولا لك اطرحه فى القبض ، فطرحته وبى مالا يعلمه إلا الله من قتل أخى ، وأخذ سلبى . فما جاوزت إلا قليلا حتى نزلت سورة الأنفال فقال لى رسول الله ﷺ ! يا سعد سألتنى السيف وليس لى ، وقد صار لى فخذه »[2].

﴿ **واتقوا الله** ﴾ أى فاجتنبوا ما كنتم فيه من المشاجرة والتنازع والاختلاف الموجب لسخط الله ، لما فيه من المضار ولاسيما فى حال الحرب .

﴿ **وأصلحوا ذات بينكم** ﴾ أى وأصلحوا ما بينكم من الأحوال ، حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق ، وهذا الإصلاح واجب شرعاً ، وعليه تتوقف قوة الأمة وعزتها ، وبه تحفظ وحدتها.روى عن عبادة بن الصامت قال : نزلت هذه الآية فينا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا فى النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا ، فجعله لرسوله ، فقسمه بين المسلمين على السواء ، وكان فى ذلك تقوى الله ، وطاعة رسوله ، وإصلاح ذات البين .

﴿ **وأطيعوا الله ورسوله** ﴾ فى كل ما يأمر به وينهى عنه ، ويقضى به ويحكم ، فالله تعالى مالك أمركم ، والرسول مبلغ عنه ، ومبين لوحيه بالقول والفعل والحكم .

وعلى هذه الطاعة تتوقف النجاة فى الآخرة ، والفوز بثوابها ، والرسول ﷺ يطاع فى اجتهاده أمر

(١) أخرجه أبو داود فى الجهاد (١٤٤) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى (٢٧٢:٥) .

الدنيا المتعلق بالمصالح العامة ، ولاسيما فى الشئون الحربية ، لأنه القائد العام فمخالفته تخل بالنظام ، وتؤدى إلى الفوضى التى لا تقوم للأمة معها قائمة ، ولأئمة المسلمين من حق الطاعة فى تنفيذ الشرع وإدارة شئون الأمة وقيادة الجند ما كان له صلى الله عليه وسلم ، بشرط عدم معصية الله تعالى ، ومشاورة أولى الأمر .

﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ أى إن كنتم كاملى الإيمان فامتثلوا هذه الأوامر الثلاثة ، إذ كماله يقتضى ذلك ، لأن الله أوجبه ، فالمؤمن بالله حقا يكون له من نفسه وازع يسوقه إلى الطاعة واتقاء المعاصى ، إلا أن يعرض له ما يغلبه عليها أحيانا من ثورة شهوة ، أو سورة غضب ، ثم لا يلبث أن يفىء إلى أمر الله ، ويتوب إليه مما عرض له.

وقد وجه الله تعالى نداءات ربانية كريمة فى هذه السورة،لو أخذت بها الأمة لكان النصر رائدها ، والتوفيق حليفها ، وألبسها الله لباس العز والشرف ، ولو عملت بها ما أهاننا أحد ، ولرفرفت راية النبى محمد على كل بلد قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذ لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار** ﴾ ، وقال جل شأنه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون** ﴾ وقال تبارك اسمه :﴿ **يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾ وقال عز وجل ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا اماناتكم وأنتم تعلمون** ﴾ وقال عظمت حكمته ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم** ﴾ وقال جلت قدرته ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** ﴾ .

ولقد بين الله تعالى فى صدر هذه السورة خصال المؤمنين الكاملين ، فقال : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم** ﴾ أى خوفا من عذابه وعقابه ، وليس الذكر كلمات تلوكها الألسنة ، وتتحرك بها الشفاه ، إنما الذكر استحضار عظمة الله تعالى فى القلب ، ونعته بنعوت الجلال والجمال والكمال .

قال عز من قائل ﴿ واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين ﴾(١).

لذا فإن الذكر على سبعة أنحاء ، فذكر العينين البكاء ، وذكر الأذنين الإصغاء ، وذكر اللسان الثناء ، وذكر اليدين العطاء ، وذكر البدن الوفاء ، وذكر الروح الخوف والرجاء ، وذكر القلب التسليم والرضا .

قال ﷺ « ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم . وخير لكم من إنفاق الخير والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم ؟ قلنا : بلى . قال ذكر الله »(٢).

فالمؤمنون إذا ذكر الله وجلت القلوب خوفا من جلاله وعظمته ، فإذا ما ذكروا رحمته وعفوه ومغفرته

(١) الآية ٢٠٦ من سورة الأعراف .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى الأدب (٥٣) . والترمذى فى الدعوات (٦) . والنسائى فى أيمان (١) .

اطمأنت القلوب : قال تعالى ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾[١]

وهكذا حال المؤمن ، فهو بين الوعد والوعيد ، وبين الرجاء والخوف ، حتى يقوم الميزان بالقسط

﴿ **وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا** ﴾ .

وذلك لأنهم يستمعون إلى كلام الله بتدبر وتفكر ، فمن أراد أن يكلم الله فليدخل فى الصلاة ، ومن أراد أن يكلمه الله فليقرأ القرآن ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ﴾[٢] .

إنهم إذا قرأوه وقفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، نظر الله تعالى إليهم فى جوف الليل واصلابهم منحنية على أجزاء القرآن ، إذا مر أحدهم بآية تبشر بالجنة بكى شوقا إليها ، وإذا مر بآيه تنذر من عذاب النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه .

وقد حذر الرسول ﷺ من أقوام يرجعون فى القرآن ، ترجيع الغناء والنوح ، يقرأونه بلحون أهل الكتابيين ، ولحون أهل العشق ، لا يتجاوز حناجرهم . مفتونة قلوبهم ، وقلوب من يعجبهم حالهم .

فيأيها المسلمون اقرءوا القرآن وابكوا وإن لم تبكوا فتباكوا ، إن البيت الذى يقرأ فيه القرآن يتسع لأهله ، ويكثر خيره ، وتسكنه الملائكة ، وتطرد منه الشياطين .

ومن استمع إلى آية من القرآن كتبت له حسنة مضاعفة ، فإذا تلاها كانت له نوراً يوم القيامة ، وفى فضل القرآن مراتب لا تحصى ومراقيه لا تستقصى ﴿ **وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ إنهم يأخذون فى الأسباب ، ولله عاقبة الأمور ، على المرء أن يسعى وليس عليه إدراك المقاصد ، قال تعالى ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾[٣].

فعلى الفلاح أن يحرث أرضه ، ويبذر الحب ، ويتعهد النبات ، ويكل الزرع إلى الله ، قال تعالى ﴿ أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾[٤].

إن المؤمنين لا يعتمدون إلا على الواحد الديان ، إنهم لا يتطايرون ، ولا يكتوون ،وعلى ربهم يتوكلون .

﴿ **الذين يقيمون الصلاة** ﴾ أى يؤدونها مستقيمة بشروطها وسننها وأركانها ، قال حاتم الأصم رضى الله عنه : إذا دخلت الصلاة جعلت كأن الكعبة أمامى ، والموت ورائى . والجنة عن يمينى ، والنار عن شمالى. والصراط تحت قدمى . والله تعالى مطلع على من أتم ركوعها وسجودها ، فإذا سلمت لا أدرى أقبلها الله أم ردها على .

قال تعالى : ﴿ وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾[٥] .

(١) الآية ٢٨ من سورة الرعد .
(٢) الآية ٢١ من سورة الحشر .
(٣) الآية ١٥ من سورة آل عمران .
(٤) الآيتان ٦٣، ٦٤ من سورة الواقعة .
(٥) الآية ٤٥ من سورة العنكبوت .

قوله تعالى ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ أى ينفقون بعضا مما رزقناهم ، وهذا البعض يسير ، قال تعالى ﴿ ولا يسألكم أموالكم * إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم * ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾[1].

ثم حكم الله تعالى لهم بعد ذلك بقوله ﴿ **أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم** ﴾ أى فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ومغفرة لذنوبهم ، ورزق كريم فى دار السلام . والله وليهم بما كانوا يعملون.

حديث عن غزوة بدر

كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

المفردات : ﴿ **الشوكة** ﴾ : الحدة والقوة وأصلها واحدة الشوك ، شبهوا بها أسنة الرماح . ﴿ **الطائفتان** ﴾ : طائفة العير الآتية من الشام وطائفة النفير التى جاءت من مكة للنجدة . و﴿ **غير ذات الشوكة** ﴾ : هى العير . و﴿ **دابر القوم** ﴾ : آخرهم الذى يأتى فى دبرهم ويكون من ورائهم و﴿ **يحق الحق** ﴾ : أى يعز الإسلام لأنه الحق ﴿ **ويبطل الباطل** ﴾ : أى يزيل الباطل وهو الشرك ويمحقه .

بدئت القصة بغزوة بدر الكبرى التى كانت أول فوز للمؤمنين، وخذلان للمشركين ، مع بيان أحكام الغنائم التى غنمها المسلمون منهم ، ثم ذكر هنا أول القصة ، وهو خروج النبى ﷺ من بيته ، وكراهة فريق من المؤمنين لذلك ، وقد كان من مقتضى الإيمان الإذعان لطاعته والرضا بما يفعله بأمر ربه ، وما يحكم أو يأمر به . ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون** ﴾

أى أن الأنفال لله يحكم فيها بالحق ، ولرسوله يقسمها بين من جعل الله لهم الحق فيها بالسوية . وإن كره ذلك بعض المتنازعين فيها ، ممن كانوا يرون أنهم أحق بها ، كإخراج ربك إياك من بيتك بالحق للقاء إحدى الطائفتين من المشركين ، وقد كان كثير من المؤمنين كارهين لذلك ، لعدم استعدادهم للقتال ، ولنحو هذا من الأسباب التى تعلم مما يلى .

وبيان ذلك أن رسول الله لما سمع بأبى سفيان مقبلا بعيره ، من الشام ، ندب المسلمين إليهم . وقال : هذه عير قريش ، فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها ، لعل الله أن ينفلكموها . فخف بعضهم . وثقل بعضهم ،

(١) الآيات ٣٦-٣٨ من سورة محمد .

ظنا منهم أن رسول الله ﷺ لايلقى حربا . وكان أبو سفيان قد استنفر عندما دنا من الحجاز من يتجسس الأخبار ، ويسأل من لقى من الركبان ، تخوفا على أمر الناس حتى أصاب خبراً من بعض الركبان ، أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولغيرك ، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى فبعثه إلى أهل مكة ، وأمره أن يأتى قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها فى أصحابه ، فخرج ضمضم بن عمرو سريعا إلى مكة .

وخرج رسول الله ﷺ الناس بذلك ، واستشارهم .

فقام أبو بكر رضى الله عنه فقال فأحسن ، ثم قام عمر فقال فأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله امض لما أمرك الله به فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون** ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد (مدينة باليمن) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . فقال رسول الله ﷺ خيراً ودعا لهم بالخير .

ثم قال رسول الله « أشيروا على أيها الناس . وإنما يريد الأنصار وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يارسول الله إنا برءاء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمامنا ، نمنعك مما نمنع منه آباءنا ونساءنا . وكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم »

فلما قال رسول الله ﷺ ذلك . قال له سعد بن معاذ . والله لكأنك تريدنا يارسول الله قال : أجل . فقال قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يارسول الله لما أمرك الله ، فوالذى بعثك بالحق لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما يتخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله . فسر رسول الله ﷺ لقول سعد . ونشطه ذلك .

ثم قال « سيروا على بركة الله ، وأبشروا ، فإن الله وعدنى إحدى الطائفتين : العير القادمة من الشام وعلى رأسها أبو سفيان ، أو النفير الآتى من مكة لنجدتهم وعلى رأسهم أبو جهل ، والله لكأنى الآن انظر إلى مصارع القوم » . ﴿ **يجادلونك فى الحق بعد ما تبين** ﴾ أى يجادلك المؤمنون فى الحق وهى تلقى النفير لإيثارهم عليه تلقى العير كراهية للقاء المشركين ، وإنكار المسير إلى قريش حين ذكروا لهم بعد أن تبين لهم الحق بإخبارك أنهم سينصرون أينما توجهوا — ويقولون ما كان خروجنا إلا للعير — وهلا قلت لنا لنستعد ونتأهب ، وما كان هذا إلا لكراهتهم للقتال ، إذ أنهم كانوا فى حال ضعف ، فكان من حكمة الله أن وعدهم أولا إحدى طائفتى قريش تكون لهم على طريق الإبهام لا على طريق التعيين فتعلقت آمالهم بطائفة العير القادمة من الشام ، لأنها كسب عظيم لا مشقة فى إحرازه لضعف الحامية .

فلما ظهر لهم أنها فاتتهم ونجت ، إذ ذهبت من طريق سيف البحر (طريق الشاطىء) وأن طائفة النفير خرجت من مكة بكل مالدى قريش من قوة ، وأنها قد قربت منهم ووجب عليهم قتالها إذ تبين أنها هى الطائفة التى وعدهم الله تعالى بالنصر عليها – صعب على بعضهم لقاؤها على قلتهم وكثرتها ، وضعفهم وقوتها ، وعدم استعدادهم للقتال كاستعدادها ، وطفقوا يعتذرون إلى النبى ﷺ بأنهم لم يخرجوا إلا للعير ، لأنه لم يذكر لهم قتالاً فيستعدوا له .

ولكن الحق تبين بحيث لم يبق للجدل فيه وجه ، فلا ينبغى أن يقال أن طائفة العير هى مراد الله لأنها نجت ، ولا بأن يقال إنا لم نعّد للقتال عدته لأنه مهما تكن حالها فلابد من الظفر بها لوعد الله به ، فإذاً لا وجه للجدل إلا للجبن والخوف من القتال . ﴿ **كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون** ﴾ أى كأنهم لشدة ما هم فيه من جزع ورهب يساقون إلى موت محقق لا هرب منه ، لوجود أماراته وأسبابه ، حتى كأنهم ينظرون إليه بأعينهم ، إذ ما بين حالهم وحال عدوهم من التفاوت فى القوة والعدد والخيل والزاد قاض بذلك ، ولكن الله تعالى وعد رسول الله والمؤمنين بالظفر والنصر عليهم (ووعده لا يتخلف)أما هذه الأسباب العادية فكثيرا ما تتخلف ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله الذى بيده كل شىء وهو القادر على كل شىء . وهكذا أنجز الله وعده لرسوله والمؤمنين ، وكان لهم الظفر والفوز على عدوهم ، وكان هذا نصراً مؤزراً للمسلمين على المشركين ، وبه علا ذكرهم . ﴿ **وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم** ﴾ أى واذكروا حين وعد الله إياكم أن إحدى الطائفتين لكم تتسلطون عليها وتتصرفون فيها .

﴿ **وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم** ﴾ أى وتتمنون أن الطائفة غير ذات الشوكة : (وهى العير) تكون لكم لأنه لم يكن فيها إلا أربعون فارساً ، وعبر عنها بذلك تعريضا لكراهتهم للقتال وطمعهم فى المال ﴿ **ويريد الله أن يحق الحق بكلماته** ﴾ أى ويريد الله بوعده غير ما أردتم يريد أن يثبت الحق الذى أراده بكلماته أى بآياته المنزلة على رسوله فى محاربة ذات الشوكة ، وبما أمر به الملائكة من نزولهم للنصرة ، وبما قضى به من أسر المشركين وقتلهم ، وطرحهم فى قليب (بئر) بدر .

﴿ **ويقطع دابر الكافرين** ﴾ أى ويهلك المعاندين جملة ، ويستأصل شأفتهم ، ويمحق قوتهم ، وقد كان الظفر ببدر فاتحة الظفر فيما بعدها إلى أن قطع الله دابر المشركين بفتح مكة .

قال صاحب الكشاف : يعنى أنكم تريدون الفائدة العاجلة ، وسفاسف الأمور ، وألا تلقوا ما يرزؤكم فى أبدانكم وأموالكم ، والله عز وجل يريد معالى الأمور ، وما يرجع إلى عمارة الدين ، ونصرة الحق ، وعلو الكلمة ، والفوز فى الدارين ، وشتان بين المرادين ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة ، وكسر قوتهم بضعفكم ، وغلب كثرتهم بقلتكم وأعزكم وأذلهم . أ.هـ.

﴿ **ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون** ﴾ أى وعد الله بما وعد وأراد بإحدى الطائفتين ذات الشوكة ليحق الحق وهو الإسلام ويثبته،ويبطل الباطل وهو الشرك ويزيله (ولو كره المجرمون) أولا الاعتداء والطغيان ، ولا يكون ذلك بالاستيلاء على العير ، بل بقتل أئمة الكفر من صناديد قريش الذين خرجوا إليكم من قلة ليستأصلوكم .

غزوة بدر الكبرى

المعركة الحاسمة الأولى للإسلام

ويحسن هنا أن نذكر ما جاء فى كتاب (الرسول القائد) تأليف اللواء محمود شيت خطاب ، فقد أفاض فى الحديث عن غزوة بدر من الناحية العسكرية حتى يكون المسلم على ذكر مما جاء منها ، فإن تلك الغزوة قد ثبتت دعائم المسلمين ، وأعلى الله بها كلمة الإسلام ، وسماها الله تعالى ﴿ يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ﴾ فنقول وبالله التوفيق :

قال المؤلف تحت عنوان الموقف العام :

١ – المسلمون :

ازداد عدد المسلمين فى المدينة وازدادوا قوة وتماسكا ، ولكن حالتهم الاقتصادية كانت مترديه ، لأن أكثر المهاجرين فروا بأنفسهم وعقيدتهم من قلة ، وتركوا أموالهم هناك ، ولأن الأنصار شاركوا المهاجرين فى أرزاقهم القليلة ، فلا عجب إذا رأينا المسلمين يفكرون جدياً فى استخلاص أموالهم من قريش .

٢ – المشركون واليهود :

أصبح للمشركين ثأر عند المسلمين فى قتل عمرو بن الحضرمى ، فلابد من الأخذ بهذا الثأر حتى تعود لقريش وحلفائها كرامتهم وهيبتهم عند العرب ، كما أن الطريق التجارية الحيوية بين الشام ومكة أصبحت تحت رحمة المسلمين وحلفائهم ، كما أن انتشار نفوذ المسلمين وازدياد قوتهم يوماً بعد يوم لايتفق مع احتكار قريش للسيادة على العرب . تلك هى العوامل المهمة التى جعلت قريشاً تفكر جدياً فى انتهاز أول فرصة للقضاء على الدين الجديد ، وكان اليهود فى المدينة يثيرون الحرب الباردة ضد المسلمين ، ويحاولون اختلاق المشاكل لهم ، ويقومون بواجب « الرتل الخامس »[1] لقريش .

قوات الطرفين

١ – المسلمون :

بلغت قوة المسلمين (٣٠٥) رجال من المهاجرين والأنصار ، بقيادة الرسول ﷺ ، وكان معهم فرسان فقط وسبعون بعيراً يتعاقب الرجلان والثلاثة والأربعة على البعير الواحد .

٢ – المشركون :

بلغت قوة المشركين (٩٥٠) رجلا ، أكثرهم من قريش ، ومعهم مائتا فرس يقودونها ، وعدد كبير من الإبل لركوبهم وحمل أمتعتهم ، وكانت هذه القوة بقيادة عدد من رجالات قريش .

(١) يقصد به « الطابور الخامس » والمقصود به الجواسيس .

أهـــداف الطرفـــين

١ - المسلمون :

(أ) الاستيلاء على القافلة التجارية لقريش بقيادة أبي سفيان ، التي كان يحميها مابين ثلاثين وأربعين رجلا .

(ب) البقاء في « بدر » بعد إفلات القافلة حتى يتسامع المشركون بقوة المسلمين فيهابونهـم ، ويتركون لهم حرية نشر الدعوة لدينهم .

٢ - المشركون :

(أ) حماية القافلة التجارية القادمة من الشام .

(ب) عند إفلات القافلة تضاربت الآراء في القتال أو العودة ، فتغلب رأى القائلين بالقتال للأخذ بثأر عمر بن الحضرمي ، وللقضاء على قوات المسلمين ، ولتعرف العرب قوة قريش وسطوتها .

قبل المعركة

١ - المسلمون :

(أ) خرج أبو سفيان أوائل الخريف من السنة الثانية للهجرة في تجارة كبيرة إلى الشام ، وقد أراد المسلمون اعتراضها في غزوة « العشيرة » عند ذهابها إلى الشام ، ولكنها تملصت منهم .

وتحيّن المسلمون عودتها من الشام ، فبعث الرسول ﷺ طلحة بن عبيد الله ، وسعيد بن زيد ، ينتظرانها ، حتى إذا وصلا « الحوراء » على طريق الشام - مكة مكثا هناك ، فلما مرت القافلة بهم ، أسرعا إلى المسلمين يخبران النبي ﷺ بأمرها .

ندب الرسول ﷺ المسلمين للخروج ، وقال لهم : « هذه عير قريش فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها » وخف بعض الناس ، وثقل بعض ، لأنهم لم يظنوا أن الرسول سيخوض معركة حاسمة ضد المشركين بل ظنوا أن الغزوة ستكون عبارة عن مناوشات طفيفة ، كما حدث في السرايا والغزوات السابقة ، وأراد جماعة لم يسلموا أن ينضموا إلى المسلمين طمعاً في الغنيمة ، فأبى النبي ﷺ عليهم الانضمام أو يؤمنوا بالله ورسوله .

(ب) تحركت قوات المسلمين في المدينة لثمان خلون من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة بالترتيبات التالية :

أولاً : دورية استطلاعية أمامية للحصول على المعلومات عن اتجاهات القافلة التجارية ونوايا قريش .

ثانيـا : القسم الأكبر مؤلف من كتيبتين : كتيبة المهاجرين ورايتها مع على بن أبي طالب وعمير بن هاشم : وكتيبة الأنصار ورايتها مع سعد بن معاذ ، وهاتان الرايتان سوداوان .

ثالثاً : مؤخرة بإمرة قيس بن أبى صعصعة .

رابعا : راية المسلمين العامة بيضاء مع مصعب بن عمير بن هاشم .

(ج) سلكت قوات المسلمين العامة طريق القوافل بين المدينة وبدر البالغ طوله حوالى (١٦٠) كيلو متراً ، وقد قسم الرسول ﷺ الإبل المتيسرة وعددها سبعون بعيراً على أصحابه ، وكان من نصيبه مع على بن أبى طالب ومرثد بن أبى مرثد الغنوى بعير واحد يتعاقبونه : تماماً كما يفعل أى فرد من قواته .

قال شريكا الرسول فى البعير : « نحن نمشى عنك » . فقال : « ماأنتما بأقوى منى ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما » . وأراد بذلك المساواة مع أى فرد من قواته ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[1].

(د) انطلق المسلمون مسرعين خوفا من إفلات قافلة أبى سفيان منهم ، وبثوا عيونهم يتعرفون الأخبار ، فلما وصلوا قريبا من « الصفراء » بعث الرسول دورية استطلاعية قوتها رجلان إلى « بدر » للحصول على المعلومات عن قريش وقافلتها ، فلما وصل المسلمون « وادى ذفران » جاءهم الخبر بخروج قريش من مكة لنجدة قافلتهم .

(هـ) أخبر الرسول ﷺ أصحابه بما بلغه من أمر قريش طالباً مشورتهم فأدلى أبو بكر وعمر برأييهما ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : « يارسول الله ، امض لما أمرك الله فنحن معك ، والله لا نقول كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى « برك الغماد » لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه » .

فسكت الناس فقال الرسول : أشيروا على أيها الناس ، وكان يريد بكلمته هذه الأنصار الذين بايعوه يوم العقبة على أن يمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم ولم يبايعوه على صد اعتداء خارج مدينتهم ، فكان الرسول ﷺ يخشى ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن يهاجمه فى المدينة فلما أحس الأنصار أن الرسول ﷺ يريد سماع رأيهم ، قام سعد بن معاذ وقال « لكأنك تريدنا يارسول الله ؟ » فقال : « أجل » .

قال سعد : « لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك فوالذى بعثك لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً : إنا لصبر فى الحرب صدق فى اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله » .

وارتحلوا جميعا حتى إذا كانوا على مقربة من « بدر » انطلق الرسول ﷺ أمام قواته وبصحبته أبو بكر ، حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم ، قال الشيخ : « لا أخبركما حتى تخبرانى « ممن أنتما ؟ » .

---

(١) الآية ٤ من سورة القلم .

قال النبى ﷺ : « إذا أخبرتنا أخبرناك » .

علم الرسول ﷺ من شيخ العرب أن عير قريش قريبة منه ، فقال شيخ العزب « نحن من ماء » . ثم انصرف وصاحبه عنه والشيخ يقول : « مامن ماء ؟ أمن ماء العراق ؟ » وهكذا لم يخبره الرسول عن هويته حتى لا تعلم قريش بمواضع المسلمين .

(و) أرسل الرسول ﷺ دوريتى استطلاع غرضهما الحصول على معلومات عن قوة قريش ومواضعها .

الدورية الأولى مؤلفة من على بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحابه ، استطاعت الوصول إلى ماء بدر ، وعادت ومعها غلامان لقريش ، فاستنطقهما الرسول ، وعلم منهما أن قريشاً وراء الكثيب « بالعدوة القصوى » ولما أجابا : « بأنهما لا يعرفان عدد رجال قريش » سألهما : « كم ينحرون يومياً ؟ » . فأجابا : « يوماً تسعاً ويوماً عشراً » .

فاستنبط الرسول ﷺ من ذلك أنهم بين التسعمائة والألف وعرف من الغلامين كذلك أن أشراف قريش خرجوا لمنعه.

والدورية الثانية مؤلفة من رجلين من المسلمين وصلا ماء بدر ، فسمعا جارية تطالب صاحبتها بدين عليها والثانية تجيبها : « إنما تأتى العير غداً أو بعد غد ، فأعمل لهم ثم أقضيك الذى لك » فعاد الرجلان فأخبرا الرسول بما سمعا .

(ز) تأهب المسلمون لخوض المعركة وعسكروا فى أدنى ماء من بدر فجاء الحباب بن المنذر إلى رسول ، فقال : « أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ » . قال : « بل هو الحرب والرأى والمكيدة » .

قال الحُباب : « يارسول الله : فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم ، فنعسكر فيه ، ثم نعود ما وراءه من الآبار ثم نبنى عليه حوضا فنملأه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون » .

أنفذ الرسول ﷺ هذا الرأى ، فما حل نصف الليل حتى تحول المسلمون إلى معسكرهم الجديد ، وامتلكوا مواقع الماء ، وأعلن الرسول لأصحابه : « أنه بشر مثلهم ، وأن الرأى شورى بينهم ، وأنه لا يقطع برأى دونهم ، وأنه فى حاجة إلى حسن مشورة صاحب المشورة الحسنة منهم » ...

وأنجزوا بناء الحوض وملأوه ماءًا، ثم غوَّروا المياه الأخرى ، وتم كل ذلك ليلا ، ثم أخذوا قسطهم من الراحة بقية الليل ، ليكونوا أقوياء فى الصراع الوشيك .

٢ – المشركون :

علم أبو سفيان بخروج الرسول لاعتراض قافلته حين رحلته إلى الشام فخاف أن يعترضه المسلمون حين عودته .

لقد كانت القافلة حوالى ألف بعير موقرة بالأموال ، إذ لم يبق أحد من قريش رجالا ونساءلم يساهم فيها بحظ حسب إمكانياته الاقتصادية حتى قوم ما تحمله القافلة بخمسين ألفاً من الدنانير .

ولما تأكد أبو سفيان من خروج الرسول ﷺ وأصحابه للتعرض لقافلته العزلاء إلا من ثلاثين أو أربعين رجلا ، استأجر ضمضم بن عمرو الغفارى ، فبعثه مسرعاً إلى مكة ليستنفر قريشاً إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها فى أصحابه .

وصل ضمضم إلى مكة ، فقطع أذن بعيره ، وجدع أنفه وحول رحله ، ووقف هو عليه وقد شق قميصه من قبل ومن دبر ، وجعل يصيح : يامعشر قريش ، اللطيمة اللطيمة ، أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه ... لا أرى أن تدركوها . الغوث الغوث ...

ولم تكن قريش فى حاجة إلى من يستنفرها ، فقد كان لكل فرد منها فى العير نصيب . ولما فرغت قريش من جهازها وأجمعت المسير ، ذكرت ماكان بينها وبين بنى « كنانة » من الحرب والحزازات ، فخشوا أن تضربهم « كنانة » من الخلف ، وكاد هذا المحذور يقعدهم عن الخروج لولا أن جاء مالك ابن جعشم المدلجى ، وكان من أشراف بنى كنانة ، فقال أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشىء تكرهونه » ...

إذ ذاك قررت قريش الخروج خاضعة لرأى دعاة الحرب وعلى رأسهم أبو جهل ، أشد الناس عداوة للمسلمين ، وعامر بن الحضرمى أخو عمر بن الحضرمى الذى قتله المسلمون فى « نخلة » والذى يحرض على الأخذ بثأره . ولم يتخلف من أشراف قريش غير أبى لهب الذى أرسل مكانه رجلا آخر . كما حشد هؤلاء كافة القادرين على حمل السلاح من قريش وحلفائهم . وسبق أبو سفيان قافلته للحصول على المعلومات عن قوة المسلمين ومواضعهم فلما ورد ماء بدر وجد عليه مجدى بن عمر ، فسأله : « هل رأى أحدا من المسلمين ؟ فأجاب مجدى : « لم أر إلاراكبين أناخا إلى هذا التل » وأشار إلى حيث أناخ الرجلان من المسلمين .

فحص أبو سفيان مناخهما ، فوجد فى روث بعيريهما نوى عرفه فى علائف يثرب فأدرك أن الرجلين من اصحاب محمد ، وأن جيشه منه قريب ، فرجع إلى القافلة ليغير طريقها نحو الساحل ، تاركاً بدراً إلى يساره ، وأسرع فى مسيره حتى بعدت المسافة بين القافلة وبين قوات المسلمين ، وأرسل أبو سفيان إلى قريش يطلب منهم أن يعودوا أدراجهم إلى مكة لنجاة قافلتهم من المسلمين .

وأرسلت قريش عمير بن وهب الجمحى ليستطلع لهم قوة المسلمين ، فرجع إليهم ليخبرهم أنهم ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون ولاكمين لهم ولامدد ولكنهم قوم ليس لهم منعة ولاملجأ إلا سيوفهم ، فلا يموت منهم رجل قبل أن يقتل رجلا مثله ، تضاربت آراء قريش ، منهم من يريد الرجوع ومن هؤلاء بنو زهرة الذين رجعوا فعلا ، ومنهم من يريد البقاء ، ومعنى ذلك الاصطدام بالمسلمين . قال أبو جهل زعيم الذين أرادوا البقاء لقتال المسلمين : « والله لا نرجع حتى نرد بدراً ، فنقيم عليه ثلاثة ننحر الجزور

ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعرف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها » .

وقصد حكيم بن حزام عتبة بن ربيعة فقال : « ياأبا الوليد ، إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها . هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر ؟ » .

قال عتبة : « وماذا يا حكيم » ؟

قال حكيم : «ترجع بالناس ، وتحمل أمر حليفك عمر بن الحضرمى » .

قال عتبة : « قد فعلت . أمن علىّ بذلك ، إنما هو حليفى فعلى عقله وما أصيب من ماله ؛ فأت ابن الحنظلية – يقصد أبا جهل – فإنى لا أخشى أن يشجر – أى يخالف بين الناس ويحملهم على عدم الوفاق – أمر الناس غيره ».

قال حكيم : « فانطلقت حتى جئت أبا جهل ، فوجدته مثل درعاً – أى أخرج درعه – من جرابها ، يهنئها – أى يتفقدها ويعدها للقتال – فقلت يا أبا الحكم ، إن عتبة أرسلنى إليك بكذا وكذا » .

قال أبو جهل : « انتفخ والله سحره – يقصد أن عتبة جبن حين رأى محمداً وأصحابه – كلا والله لانرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بعتبة ما قال ، ولكنه قد رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزور ، وفيهم ابنه تخوفكم عليه ».

وبعث أبو جهل إلى عامر بن الحضرمى فقال : « هذا حليفك يريد أن يرجع الناس ، وقد رأيت ثأرك بعينك ، فقم وانشد خفرتك » . فقام عامر بن الحضرمى فاكتشف ، ثم صرخ « واعمراه .. واعمرا » .

ولما علم عتبة بقول أبى جهل : « انتفخ والله سحره » قال : « سيعلم مصفرا سته – أى الجبان – من انتفخ سحره ، أنا أم هو ؟ » .

ولم يبق مفر ولا مهرب من القتال .

سير القتال

١ – أنجز المسلمون قبل بدء القتال مايلى :

(أ) انتخب الرسول ﷺ موضعاً مشرفاً على منطقة القتال فى بدر وبنى فيه مقره – العريش – وأمّن حراسة هذا المقر .

(ب) جرى ترتيب المقاتلين فى صفوف وساوى الرسول ﷺ بين الصفوف بعد أن شجّع أصحابه وحرّضهم على الصبر فى القتال . وأمر الرسول أصحابه أن يصدّوا هجمات المشركين وهم مرابطون فى مواقعهم وقال لهم : « إذا اكتنفكم القوم ؟ فانضحوهم بالنبل ، ولا تحملوا عليهم حتى تؤذنوا » ...

(جـ) كانت كلمة التعارف بين المسلمين وشعارهم فى القتال . أحد .. أحد[١].

٢ – دخل المسلمون المعركة بالأسلوب الآنف الذكر : مقر قيادة كامل وسيطرة لقائد واحد وأسلوب جديد فى القتال لم تعرفه العرب من قبل ، هو أسلوب الصف .

٣ – اما المشركون فقد مارسوا أسلوب قتال « الكر والفر » بدون قيادة منظمة ولا سيطرة ، بحيث جرى قتالهم كأفراد لا كمجموعة موحدة .

٤ – بدأ المشركون الهجوم أولاً ، إذ هجم الأسود بن عبد الأسد على الحوض الذى بناه المسلمون قائلا : « أعاهد الله لأشربنّ من حوضهم أو لأهدمنّه أو لأموتنّ دونه » فتصدى له حمزة بن عبد المطلب فضربه بالسيف ضربة أطارت نصف ساقه ، ومع ذلك حبا إلى الحوض لاقتحامه ، وتبعه حمزة يقاتله حتى قتله فيه .

٥ – برز من المشركين عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة ، فخرج إليهم فتية من الأنصار ، ولكن الرسول أعادهم وطلب خروج عبيدة بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب ، لأنهم من أهله فهو يؤثرهم بالخطر على غيرهم ، ولأن شجاعتهم وممارستهم للقتال معروفة ، لذلك فإن نجاحهم مضمون على رجالات قريش ، مما يرفع معنويات المسلمين ويضعضع معنويات المشركين .

بارز عبيدة عتبة ، وبارز على الوليد ، وبارز حمزة شيبة ، فأما حمزة فلم يمهل شيبة ان قتله وكذلك فعل على .

وأما عبيدة وعتبة فقد جرح كلاهما الآخر ، فكرّ على وحمزة بأسافهما على عتبة فأجهزا عليه واحتملا صاحبهما .

٦ – استشاط المشركون غضباً لهذه البداية السيئة ، فأمطروا المسلمين وابلا من سهامهم وهاجمتهم فرسانهم إلا أن صفوف المسلمين بقيت صامدة فى مواضعها ، تصوب نبالها على المشركين متوخية إصابة ساداتهم بالدرجة الأولى ولم يفطن المشركون لأسلوب المسلمين الجديد فى القتال ، مما جعل رجالات المشركين تتهاوى بوابل نبال المسلمين المصوّبة تصويباً دقيقاً ، والمسيطر عليها .

٧ – ونزل الرسول ﷺ بنفسه يقود صفوف المسلمين ، وأخذت هذه الصفوف تقترب رويداً رويداً من فلول المشركين التى فقدت قادتها .. حتى تبعثرت قوات المشركين .

وحينذاك فقط أصدر الرسول ﷺ أمره لقواته : « شدوا » ومعنى ذلك القيام بالمطاردة .

وبدأت مطاردة المسلمين لفلول المشركين ، وأخذوا يجمعون الغنائم والأسرى .

٨ – ابتدأت معركة بدر صباح يوم الجمعة ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة وانتهت مساءه ، وبقى المسلمون ثلاثة أيام فى بدر بعد المعركة ثم غادروها عائدين إلى المدينة .

(١) وهى ما تعادل فى الجيوش الحديثة كلمة السر .

خسائر الطرفين

١ - المسلمون :

استشهد أربعة عشر مسلماً : ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار .

٢ - المشركون :

قتل سبعون رجلا وأسر سبعون أيضاً

أسباب انتصار المسلمين

١ - قيادة موحدة :

كان الرسول هو القائد العام في معركة « بدر » وكان المسلمون يعملون يداً واحدة تحت قيادته : يوجههم في الوقت الحاسم للمحل الحاسم للقيام بعمل حاسم ، وهذا هو واجب القائد الكفء .

وكان ضبط المسلمين في تنفيذ أوامر قائدهم مثالاً رائعا للضبط الحقيقي المتين ، وإذا كان الضبط أساس الجندية ، وإذا كان الجيش الممتاز هو الذي يتحلى بضبط ممتاز ، إذا كان الأمر كذلك ، فقد كان جيش المسلمين جيشاً ممتازاً بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان .

إن معنى الضبط فيما أرى ، هو طاعة الأوامر وتنفيذها بحرص وأمانة وعن طيب خاطر .

وقد كان المسلمون ينفذون أوامر قائدهم بحرص شديد وأمانة نادرة ، وبشوق وطيب خاطر عظيمين ، ومن حقهم أن يفعلوا ذلك ، لأن قائدهم يتحلى بصفات القائد المثالي .

صبر في الشدائد ، وشجاعة نادرة في المواقف الحرجة ، ومساواة لنفسه بأصحابه ، واستشارتهم في كل عمل حاسم ، وأخذه بالمشورة .

رأى الخطر محدقاً بأصحابه قبل المعركة ، لأنهم قليلون وقريش تفوقهم عَدَدًا وعُدَدًا .. فقابل ذلك بالصبر والتوكل على الله ، وشجع أصحابه على الصبر في القتال .

وعندما اشتدت المعركة نزل يخوضها بنفسه ، وحسبك شهادة علي بن أبي طالب سيد الشجعان حيث يقول : « إنا كنا إذا اشتد الخطب واحمرت الحدق ، اتقينا برسول الله ﷺ ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، ولقد رأيتني يوم « بدر » ونحن نلوذ برسول الله وهو أقربنا إلى العدو »[1].

ولم يؤثر نفسه بمال أو راحة على أصحابه ، وقد رأيت كيف ساوى نفسه مع أصحابه حتى في أعقاب الإبل والمشي على الأقدام .

وشاور أصحابه حين بلغه خبر خروج قريش ، وسمع رأي المهاجرين والأنصار في لقاء المشركين وقبل

(١) أخرجه مسلم في الجهاد (٧٩) .

مشورة أحد أصحابه فى تبديل معسكره فى بدر حين نزل بأدنى ماء منها ، فانتقل بالمسلمين إلى حيث أشار الحباب ، وغور القلب وبنى حوضاً على القليب الذى أتاه .

واستشار المسلمين فى أمر الأسرى بعد المعركة ، وعمل بالرأى الذى ابداه أبو بكر ومشايعوه .

تلك مزايا القائد المثالى فى كل زمان ومكان .

ولابد للقائد من مقر يسيطر منه على المعركة فبنى العريش فوق رابية مشرفة على ساحة المعركة وكان لمقره حرس بإمرة أمر مسئول .

كل ذلك جعل المسلمين يقاتلون كرجل واحد ، لغاية واحدة ، بقيادة قائد واحد ، هذا عامل مهم من عوامل النصر فى كل حرب ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾[1].

أما المشركون فلم يكن لهم قائد عام ، كان أكثر سراة قريش مع قوات المشركين ، ولكن البارزين من هؤلاء على ما يظهر هما رجلان : عتبة بن ربيعة ، وأبو جهل .

وقد رأيت كيف أنهما لم يكونا على رأى واحد ، ولم يكن لهما هدف واحد ، بل إنهما كانا أقرب إلى العداوة منهما إلى الإخاء .

لذلك ، فقد طغت الأنانية الفردية على المصلحة العامة أثناء القتال ، وحاول كل رجل من رجالات قريش أن يظهر نفسه بطلا لتتحدث العرب عنه ، دون أن يكترث بأثر ذلك على نتائج المعركة .

٢ – تعبئة جديدة :

طبق الرسول ﷺ فى « مسير الاقتراب » من المدينة إلى بدر تشكيلا لا يختلف بتاتاً عن التعبئة الحديثة فى حرب الصحراء ، كانت له مقدمة ، وقسم أكبر ، ومؤخرة ، واستفاد من دوريات الاستطلاع فى الحصول على معلومات وتلك هى الأساليب الصحيحة لتشكيلات سير الاقتراب فى حرب الصحراء ، حتى فى العصر الحاضر .

أما فى المعركة فقد قاتل المسلمون بأسلوب الصفوف ، بينما قاتل المشركون بأسلوب الكر والفر ، ولابد لنا من بيان الفرق بين الأسلوبين ، لمعرفة عامل من أهم عوامل انتصار المسلمين ، القتال بأسلوب الكر والفر ، هو أن يهجم المقاتلون بكل قوتهم على العدو ، النشابة منهم ، والذين يقاتلون بالسيوف ، ويطعنون بالرماح ، مشاة وفرساناً ، فإن صمد لهم العدو أو أحسوا بالضعف نكصوا ، ثم أعادوا تنظيمهم ، وكروا ، وهكذا يكرون ويفرون ، حتى يكتب لهم النصر أو الفشل .

والقتال بأسلوب الصفوف يكون بترتيب المقاتلين صفين أو ثلاثة أو أكثر على حسب عددهم ، وتكون الصفوف الأمامية من المسلمين بالرماح ، لصد هجمات الفرسان ، وتكون الصفوف المتعاقبة الأخرى من

(١) الآية ٧ من سورة محمد .

المسلحين بالنبال لتسديدها على المهاجمين من الأعداء ، وتبقى الصفوف فى مواضعها بسيطرة قائدها إلى أن يُفقِد زخم المهاجمين بالكر والفر شـدته ، عند ذاك تتقدم الصفوف متعاقبة بالزحف على العدو .

يظهر من ذلك أن أسلوب الصفوف يمتاز على أسلوب الكر والفر بأنه يؤمن الترتيب بالعمق ، فتبقى دائما بيد القائد قوة احتياطية يعالج بها المواقف التى ليست بالحسبان ، كأن يصد هجوماً مقابلا للعدو ، أو يضرب كميناً لم يتوقعه ، أو أن يحمل أجنحته التى يهددها العدو بفرسانه أو بمشاته ثم يستثمر الفوز بالاحتياط من الصفوف الخلفية عند الحاجة .

إن أسلوب الصفوف يؤمن السيطرة على القوة بكاملها ، ويؤمن احتياطاً للطوارىء ، ويصلح للدفاع والهجوم فى وقت واحد .

أما أسلوب الكر والفر فيجعل القائد يفقد السيطرة ، ولا يؤمن له أى احتياط للطوارىء .

إن تطبيق الرسول ﷺ لأسلوب الصفوف فى معركة بدر عامل مهم من عوامل انتصاره على المشركين .

والتاريخ العسكرى يحدثنا بأن سر انتصار القادة العظام كالإسكندر ،وهانيبال قديما ، ونابليون ، وملتكه ، وروميل ، وروتشيلد حديثا ، هو أنهم طبقوا أسلوباً جديداً فى القتال غير معروف ، أو قاتلوا بأسلحة جديدة غير معروفة .

استعرض الرسول ﷺ أصحابه قبل القتال ، فعندما رآهم يتزاحمون ، ويدنو بعضهم من بعض ، جعلهم صفوفاً ، وأخذ يعدل صفوفه ، وبعد ذلك خطبهم حاثاً لهم على الجهاد ، وأمرهم أن يصدوا هجوم العدو وهم مرابطون فى مواقعهم ، وذلك بتسديد النبال إلى صدور العدو ، كما أمرهم ألا يحملوا إلا بأمر منه ، فلما تهاوت رجال قريش ، وضعف زخم هجومهم ، أصدر إلى المسلمين أمره بالهجوم ، ثم بالمطاردة بعد انهزام المشركين .

لقد سيطر الرسول ﷺ على الصفوف فى دفاعها وهجومها ومطاردتها ، حتى لم يتقدم أحد للمبارزة إلا بأمر منه ، ولم يقم المسلمون بأى عمل إلا بأمر منه ، وبذلك أمن السيطرة والاحتياط اللازم تماماً ، كما فى الحرب الحديثة .

لقد طبق الرسول ﷺ أسلوباً جديداً فى القتال ، فانتصر .

٣ – عقيدة راسخة :

رأيت كيف كان جواب المهاجرين والأنصار للرسول ﷺ حين استشارهم فى قتال قريش .

لقد علم المسلمون بأن قريشاً تفوقهم فى العدد والعُدَد ، وأن عدد قوات قريش ثلاثة أمثال عدد المسلمين ، ومع ذلك اعتزموا على الصمود إلى النهاية . كما علموا أن قافلة قريش فاتتهم ، فلم يبق هناك كسب مادى يرجونه ، ومع ذلك صمموا على القتال .

لقد كانت للمسلمين أهداف معينة يعرفونها ويؤمنون بها ، هى أن تترك الحرية الكاملة لهم لبث دعوتهم ، حتى تكون كلمة الله هى العليا .

فما هى أهداف قريش من حربها ، إلا أن تنحر الجزور ، وتطعم الطعام ، وتشرب الخمر ، وتعزف القيان ، فتسمع العرب بمسيرها ، فيهابونها أبداً بعدها ، كما قال أحد زعمائهم وهو أبو جهل .

وهل تستطيع تسمية ذلك أهدافاً أم ذلك طيش وغرور وعصبية جاهلية ؟

فى هذه المعركة التقى الآباء بالأبناء ، والإخوة بالإخوة . خالفت بينهم المبادىء ، ففصلت بينهم السيوف .

كان أبو بكر مع المسلمين . وكان ابنه عبد الرحمن مع المشركين . وكان عتبة بن ربيعة مع قريش ، وكان ولده أبو حذيفة مع المسلمين .

وعندما استشار الرسول ﷺ عمر بن الخطاب فى مصير الأسرى ، قال عمر : « أرى أن تمكننى من فلان – قريب عمر – فأضرب عنقه ، وتمكن علياً من عقيل بن أبى طالب فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أنه ليست فى قلوبنا هوادة للمشركين ، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم » .

فما الذى يدفع لمثل هذا القول إلا عقيدة راسخة ، وإيمان عظيم ، وهل يستطيع الذين لا عقيدة لهم ، ولا تحمل صدورهم إلا أهواء الجاهلية ، وعصبية الأنانية ، وحب الظهور أن يقاتلوا فى بسالة وشجاعة كما يقاتل أمثال هؤلاء من أصحاب اليقين الثابت ، والعقيدة الراسخة .

٤ – معنويات عالية :

شجع الرسول ﷺ أصحابه قبل القتال وأثناءه ، وقوى عزائمهم ومعنوياتهم ، حتى لا يكترثوا بتفوق قريش عليهم بالعدد ، ولم تكن معنويات الكبار الذين مارسوا الحرب وعرفوها من المسلمين هى العالية فحسب ، إنما كانت معنويات الأحداث الصغار الذين لم يمارسوا حرباً ولا قتالا ، عالية أيضا .

قال عبد الرحمن بن عوف .

« إنى لفى الصف يوم بدر إذا التفتّ فإذا عن يمينى وعن يسارى فتيان حديثا السن فكأنى لم آمن بمكانتهما إذ قال لى أحدهما سراً من صاحبه : يا عم أرنى أبا جهل . فقلت : يا ابن أخى ما تصنع به ؟ قال : عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه » .

« وقال لى الآخر سراً من صاحبه مثله ، فأشرت لهما إليه فشدا عليه مثل الصقرين : فضرباه حتى قتلاه »

وقد استشهد هذان البطلان فى بدر ، وهما ابنا عفراء : عوف بن الحارث الخزرجى الأنصارى ،

ومعوذ بن الحارث الخزرجي الأنصارى .

فإذا كانت معنويات الفتيان الأحداث بهذا المستوى الرفيع ، فكيف تكون معنويات الرجال ؟!

لقد أثبتت كافة الحروب فى كافة أدوار التاريخ أن التنسليح والتنظيم الجيدين والقوة العددية غير كافية ، لنيل النصر ، ما لم يتحل المقاتلون بالمعنويات العالية بالإضافة إلى كل ذلك .

لقد كان تنظيم وتسليح الإيطاليين فى الحرب العالمية الثانية ممتازاً، كما كان عددهم ضخماً ، فلم يغن عنهم كل ذلك لأن معنوياتهم كانت منهارة ، ولذلك كانوا عبئاً ثقيلاً على حلفائهم الألمان فى كل معركة اشتركوا فيها معهم ، بل كان الحلفاء يعتبرون المناطق التى تشغلها القوات الإيطالية فراغا عسكريا لا يكترث به .

إن المعنويات القتالية التى كان يتحلى بها المسلمون فى بدر من أهم أسباب نصرهم فى تلك المعركة الحاسمة .

لقد كانت معركة بدر صراعاً حاسماً بين عقيدتين ، فانتصرت العقيدة التى تستحق البقاء على العقيدة التى لا تستحق البقاء .

دروس من بدر

١ - الاستطلاع :

استفاد الطرفان من دوريات الاستطلاع فى الحصول على المعلومات ، ليحولوا دون مباغتتهم ، وكان حصول الطرفين على المعلومات عن القوات ومواقعها عن الأرض جيداً مفيداً . وقد ظهرت لنا فائدة استنطاق الأسرى الذى أجراه الرسول ﷺ مع غلامى قريش قبل المعركة فى معرفة عدد قوات قريش ، كما كان استنتاج أبى سفيان من فحصه روث ركائب المسلمين اللذين استطلعا موقع بدر ، ومعرفته هويتهما رائعا حقاً .

إن تشبث الطرفين بالحصول على المعلومات حرم الطرفين من مبدأ المباغتة فى الزمان والمكان ، فلم يستفد أحد الطرفين من هذا المبدأ الحيوى فى هاتين الناحيتين أو فى إحداهما على الأقل ، فى هذه المعركة .

٢ - القيادة :

برزت مزايا الرسول ﷺ فى القيادة بمعركة بدر الشجاعة ، وضبط الأعصاب وعقد المؤتمرات الحربية قبل وأثناء وبعد المعركة ، ومساواة أصحابه مع نفسه بكل شىء كما طبق الرسول القائد لأول مرة شروط انتخاب المقر الملائم للمعركة ، وأمّن حراسته .

٣ - الضبط والمعنويات والعقيدة :

ظهر بوضوح أثر الضبط المتين ، والمعنويات العالية ، والعقيدة الراسخة ، فى انتصار المسلمين على قريش ، وستبقى هذه المزايا حيوية لكل انتصار فى كل حرب .

٤ – القضايا التعبوية :

(أ) **فى مسير الاقتراب** : كانت ترتيبات المسلمين فى مسير الاقتراب ملائمة جداً : مقدمة ، وقسم أكبر ، ومؤخرة ، وراية لكل من المهاجرين والأنصار ، وراية عامة للقوات كلها ، كما كانت دوريات الاستطلاع أمام الرتل تحول دون مباغتته ، وهى تزوده بالمعلومات عن قريش .

إن ترتيبات المسلمين فى مسير الاقتراب تشابه تماماً ترتيبات القوات النظامية الحديثة فى مسير الاقتراب فى حرب الصحراء .

(ب) **فى القتال** : استخدم المسلمون لأول مرة « أسلوب الصف » فى قتالهم ضد قريش ، بينما جمدت قريش على أسلوب الكر والفر ، وبذلك استطاع الرسول السيطرة على قواته ، والاحتفاظ باحتياط للطوارىء .

لقد باغت الرسول ﷺ قريشاً فى قتاله بأسلوب « الصف » والمباغتة بالأسلوب من مزايا القائد العبقرى .

لقد كان أسلوب الصف فى القتال أسلوباً جديداً بينما كان أسلوب الكر والفر أسلوباً بالياً .

(ج) **كلمة التعارف** : كانت كلمة التعارف فى القتال بين المسلمين أحد .. أحد ، وبذلك استطاعوا أن يتعارفوا فى المعركة وهذا الأسلوب متبع فى المعارك الحديثة .

إن ظروف المعركة ليست ظروفا اعتيادية ، ومن الضرورى أن يكون هناك أسلوب واضح للتعارف بين المقاتلين، خاصة وأن المسلمين والمشركين حينذاك كانوا يتشابهون فى كل شىء : فى الأشكال ، والقيافة ، وفى التسليح ، والتنظيم مما يزيد أهمية كلمة التعارف ، ويجعل لها قيمة أعظم مما لو كان الطرفان المتحاربان يختلفان فى أشكالهم ، وقيافتهم ، وتسليحهم ، وتنظيمهم .

٥ – القضايا الإدارية :

(أ) **الأرزاق** : كان المشركون ينحرون بين تسعة من الإبل وعشرة يوميا لتأمين الطعام الحار للمقاتلين ، وكانت هذه الإبل تقدم من سراة قريش .

أما المسلمون فقد كانوا يكتفون غالباً بالتمر والسويق لأن حالتهم الاقتصادية كانت ضعيفة حينذاك .

(ب) **الماء** : بنى المسلمون حوضاً للماء فى (بدر) وملأوه بالماء واستفادوا منه يوم القتال ، أما بقية مياه بدر فغوروها ، لئلا يستفيد منها المشركون ، أما المشركون فكانوا محرومين من الماء يوم القتال مما جعل شجعانهم يحاولون اقتحام حوض المسلمين . فلا يستطيعون إلى ذلك سبيلا .

لقد كان لنقص الماء عند المشركين يوم القتال أثر كبير فى اندحارهم .

(ج) **الغنائم** : جمع الرسول ﷺ غنائم المعركة وقسمها بالتساوى بين المسلمين من أهل بدر ، ومن

عاونهم على إحراز النصر : جعل للفارس سهمين يستعين بالسهم الزائد على إعاشة فرسه ، وإعدادها للحرب ، وجعل للراجل سهما واحداً ، وجعل للورثة حصة من استشهد ببدر ، وجعل حصة لمن تخلف بالمدينة فلم يشهد (بدراً) لأنه كان قائما بعمل المسلمين ، وبقى فى المدينة ، بأمر الرسول ، ولمن حرضه حين الخروج إلى بدر وتخلف لعذر قبله الرسول .

إن النصر فى الحرب لا يحرزه المقاتلون فقط ، بل يتعاون على إحرازه المقاتلون فى الخطوط الأمامية ، والعاملون فى الخلف ، لتهيئة أسباب النصر للمقاتلين ، لذلك لم ينس الرسول ﷺ العاملين فى الخلف **حين قسم الغنائم** بين الناس .

(د) الأسرى

أولاً : أمر الرسول ﷺ بقتل أسيرين لشدة عداوتهما للمسلمين حريصين على التنكيل بهم شديدين فى إيذاء المستضعفين منهم وكانا من ألد خصوم الدعوة .

ثانيا : أما الأسرى الباقون وعددهم ثمانية وستون فقد وزعهم الرسول ﷺ على صحابته قائلا « استوصوا بالأسارى خيراً » .

ثم فادى الأغنياء الأسرى بالمال فكان الواحد منهم يدفع ما بين الألف درهم إلى الأربعة آلاف ، أما فقراء الأسرى فأطلق سراح بعضهم دون مقابل ، كما كلف المتعلمين منهم بتعليم أطفال المسلمين القراءة والكتابة ثم أطلق سراحهم بعد تعليم هؤلاء الأطفال .

(و) القتلى والجرحى :

حفر المسلمون قليباً دفنوا فيه قتلى المشركين وهذا ما يطابق تعاليم الحرب الحديثة فى وجوب دفن قتلى الأعداء .

كما اعتنى المسلمون بجرحى المشركين فضمدوا جراحاتهم أسوة بجرحى المسلمين .

(ز) التهذيب :

استفاد المسلمون من الأسرى المتعلمين تعليم أطفالهم ، فكان هؤلاء الأطفال النواة الأولى لكتاب الوحى ، ولحملة الثقافة الإسلامية فيما بعد .

الاستغاثة بالله

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ

رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾

المفردات : ﴿ **تستغيثون ربكم** ﴾ : استغاث طلب الغوث والمعونة ليخلص من شدة . ﴿ **ممدكم** ﴾ : ناصركم ومعينكم . ﴿ **مردفين** ﴾ : متبعين بعضهم بعضاً مأخوذ من أردفه إذا أركبه وراءه . ﴿ **يغشيكم** ﴾ : المراد يجعله عليكم كالغطاء من حيث اشتماله عليكم . ﴿ **النعاس** ﴾ : فتور فى الأعصاب يعقبه النوم فهو مقدمة له . ﴿ **رجز الشيطان** ﴾ : الرجز والركس الشيء المستقذر والمراد وسوسة الشيطان . ﴿ **وليربط على قلوبهم** ﴾ ليثبتها ويوطنها على الصبر . ﴿ **الرعب** ﴾ : الخوف الكثير . ﴿ **فوق الأعناق** ﴾ : المراد الرءوس (بنان) هو أطراف الأصابع من اليدين والرجلين والمراد الأيدى والأرجل . ﴿ **شاقوا** ﴾ : خالفوا وعادوا إذ هم أصبحوا فى شق وناحية والرسول فى شق وناحية .

سبب النزول :

روى عن عمر بن الخطاب أنه قال : لما كان يوم بدر نظر النبى ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف أو يزيدون فاستقبل النبى ﷺ القبلة ، ثم مد يده وجعل يهتف بربه « اللهم أنجز لى ما وعدتنى اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض » فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبلا القبلة حتى سقط رداؤه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه وقال : كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله الآية .. وفى رواية فخرج رسول الله وهو يقول ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾[1] .

اذكروا يا أمة محمد وقت استغاثتكم ربكم قائلين أى ربنا انصرنا على عدوك يا غياث المستغيثين ، أغثنا والمراد بالذكر تذكير لهم بالنعم ليشكروا ، وقد استغاث النبى ﷺ كذلك كما روى ، وبذلك أنهم لما علموا أنه لابد من القتال وملاقاة النفير من قريش أخذوا يدعون الله ويستغيثون .

واعلم أن النصر فى الحروب إنما يرجع إلى أسباب حسية ومعنوية إن تحققت جاء النصر من الله : والله سبحانه هو الموفق لسلوك أسباب النصر أو أسباب الهزيمة والنبى ﷺ يعلم ذلك ، وأن لله سننا مع خلقه لا تتخلف ، وأن عنده آيات يؤيد بها رسله ، ولكنه لما رأى ضعف المسلمين وقلة عددهم وتهيبهم

(١) الآية ٤٥ من سورة القمر .

من القتال ، استغاث الله ليوفقه إلى سنن النصر ، ويؤيده فتقوى الروح المعنوية فيتحقق النصر ، وقد استغاث الصحابة كما استغاث ، ولقد استجاب الله الدعاء وأمدهم بألف من أعيان الملائكة يردف بعضهم بعضا حتى يتحقق قوله فى سورة آل عمران ﴿ بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ﴾[١] : ﴿ بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾[٢] وماجعل الله ذلك المدد الإلهى إلا بشرى بأن النصر لكم ، وأن الله معكم ، ولتسكن قلوبكم . ويهدأ روعكم فتلقون الأعداء ثابتين مطمئنين .

واعلموا أن النصر من عند الله لا من عند غيره أبداً ، وأن الله عزيز لا يغالب حكيم فى كل صنع .

وهل الملائكة قاتلت بالفعل كما ورد فى بعض الروايات ؟ أو هى قوة معنوية وتكثير للسواد ولم يحاربوا ، بل ثبتت قلوب المسلمين ، وقويت روحهم المعنوية بهم ، الله أعلم على أن المتفق عليه أنهم لم يقاتلوا يوم أحد ، لأن الله علق النصر على الصبر والتقوى ولم يحصلا .

واذكروا إذ ألقى الله عليكم النعاس حتى غشيكم كما روى البيهقى عن على كرم الله وجهه قال : « ما كان فينا إلا المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم ، إلا رسول الله ﷺ يصلى تحت الشجرة حتى أصبح » .

ولاشك أن النعاس يزيل الخوف ومن دلائل الأمن والطمأنينة والوثوق بالنصر .

ولقد نزلوا فى بدر منزلاً فى كثيب (تل) أعفر تسوخ فيه الأقدام ، وليس فيه ماء ، وقد احتلم بعضهم ليلا ، ولما أصبحوا ظمئوا وصلوا مجنبين محدثين ، وكان المشركون على الماء فوسوس لهم إبليس وقال لو كنتم على حق وفيكم نبى لما صليتم بجنابة وبغير وضوء ، ولما كنتم عطاشى وهم على الماء . فأنزل الله مطراً كان على المشركين وابلا شديداً ، وكان على المسلمين طلا خفيفا طهرهم من الرجس والدنس ، والجنابة والحدث وقضى على وسوسة الشيطان وأصبحوا يطئون الرمل بسهولة ، فثبتت أقدامهم ، وسكنت قلوبهم ، وسبق رسول الله وأصحابه إلى الماء فنزلوا عليه ، وصنعوا الحياض ثم غوروا ما عداها من المياه وبنى لرسول الله عريش على تل مشرف على المعركة .

واذكروا إذ يوحى ربك إلى الملائكة بالإلهام أنى معكم معية إعانة ونصر وتأييد . فثبتوا قلوب المؤمنين ، وقووا عزائمهم ، وذكروهم وعد الله ورسوله ، وأنه لا يخلف الميعاد .

وقد روى أن الملائكة كانت تسير بين الصفوف وتبشرهم بالنصر إنا معكم ، سنلقى فى قلوب الكافرين الرعب . فاضربوا رءوسهم التى فوق الأعناق واقطعوها ، واقطعوا أيديهم التى طالما عصت الله .

ذلك النصر المؤزر للنبى وصحبه ، وذلك الخذلان والهزيمة للمشركين بسبب أنهم عادوا الله ورسوله ، وأصبحوا فى شق والرسول فى شق ، وهل تستوى الظلمات والنور ؟

(١) الآية ١٢٤ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ١٢٥ من سورة آل عمران .

ومن يعاد الله ورسوله فإن له فوق الهزيمة والألم والخزى فى الدنيا عذاباً شديداً ، فإن الله شديد عقابه سريع حسابه .

توجيهات حربية للمؤمنين

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

المفردات : ﴿ **زحفاً** ﴾ : زحف إذا مشى على بطنه كالحية أو دب على مقعده كالصبى أو مشى بثقل فى الحركة واتصال وتقارب خطو ، والعسكر المجتمع كأنه شخص واحد إذا تحرك يبدو أنه بطىء زاحف والواقع أنه سريع . ﴿ **الأدبار** ﴾ جمع دبر وهو ما يقابل القبل ويطلق على الظهر والمراد الهزيمة . ﴿ **متحرفاً** ﴾ : تحرف وانحرف مال إلى حرف أى إلى جانب . ﴿ **متحيزاً** ﴾ : منحازاً إلى جماعة أخرى أى منضما إليها . ﴿ **ليبلى المؤمنين** ﴾ البلاء الاختبار بإعطاء النقم لاختبار الصبر ، والنعم لاختبار الشكر ، والمراد هنا الابتلاء بالنعم . ﴿ **تستفتحوا** ﴾ : أن تطلبوا الفتح والنصر فى الحرب والفصل فى الأمر .

يا أيها الذين آمنوا بالله ، وصدقوا به وبرسوله ، يجب عليكم إذا لقيتم الذين كفروا فى ميدان الحرب حالة كونهم كالزاحفين على أدبارهم فى بطء السير ، إذ الجيش إذا كثر عدده يرى فى سيره بطيئاً والواقع أنه سريع ، وقد زحف الكفار على المسلمين يوم أن انتقلوا من مكة إلى بدر ، فيجب عليكم والحالة هكذا ألا تولوهم الأدبار ، وألا تفروا منهم مهما كثر عددهم وأنتم قلة بل اثبتوا وقاتلوا فالله معكم عليهم ، وقد خص بعض العلماء هذا إذا كان الكفار لا يزيدون على الضعف ومن يولهم يومئذ دبره فى القتال ، ومن يفر منهم ويجبن عن قتالهم فعليه غضب من الله ومأواه جهنم .

فالفرار من الزحف إذا التقى الجيشان كبيرة من الكبائر ، كما ورد فى الحديث يستحق صاحبها الغضب الشديد والعذاب الأليم ، إلا رجلا منحرفا من مكان إلى مكان رآه أصلح فى ضرب العدو ، أو أراد أن يوهم العدو أنه يفر حتى يستدرجه بعيداً عن صحبه ، ثم يكر عليه فيقتله ، فتلك من خدع

الحرب المحبوبة ، أو رجلا منتقلا من جماعة إلى جماعة أخرى رأى أنها فى حاجة إليه ، فيشد أزرهم ، ويقوى عزمهم .

يا أيها الذين آمنوا إذا حاربتم الكفار فلا تولوهم ظهوركم أبداً ، ولا تفروا منهم ، فأنتم أولى بالثبات والشجاعة ، فأنتم تطلبون إحدى الحسنيين ، وقد وعدكم الله بالنصر .

انظروا إلى ما حصل فى غزوة بدر ، قد نصركم الله بها وأنتم قلة فى العدد ، وما كان ذلك إلا بتأييد الله ، وتثبيت قلوبكم ومدكم بالملائكة ، وبإلقاء الرعب فى قلوب أعدائكم ، فلم تقتلوهم ذلك القتل الذى كسر شوكتهم فى الواقع ، ولكن الله قتلهم بأيديكم ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ﴾[1] .. الآية .

ولقد كان من المسلمين بعد أن رجعوا من غزوة بدر ، افتخار كثير ، فكان الواحد يقول : أنا قتلت ، أنا أسرت ، فعلمهم الله أن ذلك فخر كاذب لا يليق ، ووجههم توجيها حسناً حتى يلجئوا إليه ، ويعتمدوا عليه وحده فقال : ﴿ **فلم تقتلوهم** ﴾ بقوتكم ﴿ **ولكن الله قتلهم** ﴾ بتأييده ونصره وإنزال الملائكة وإلقاء الرعب وهو على كل شىء قدير .

روى أنه لما طلعت قريش قال رسول الله ﷺ : « هذه قريش قد جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك اللهم إنى أسألك ما وعدتنى فأتاه جبريل فقال : خذ قبضة من تراب فارمهم بها ، فرمى بها وقال : شاهت الوجوه فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه » .

وما رميت يا محمد حين رميت الحصى ، ولكن الله رمى ، وهذا ظاهره التناقض ، ولكن المعنى وما رميت يا محمد فإنه الأثر الذى حدث من قبضة التراب التى رميتها أثر كبير ، حيث وصل إلى عيون الجيش كله ، وهذا لا يمكن أن يكون من بشر وإن تكن أنت الذى رميت فى الظاهر فصورة الرمى للرسول ﷺ وأثر الرمى وما حدث منه لله سبحانه وتعالى .

فعل الله ذلك كله لتقام حجته على الكفار بتأييد رسوله ونصره على عدوه ، وإن اختلفت الإمكانيات الحربية ، وليعطى المؤمنين الذين فارقوا ديارهم وأموالهم عطاء حسناً بالغنيمة والنصر وحسن السمعة ورد الاعتبار ، إن الله سميع لكل قول والتجاء إليه ، عليم بكل نية وعمل ، ذلكم القتل والرمى والإعطاء حق من الله تعالى موهن كيد الكافرين ومكرهم بالنبى ﷺ وصحبه وأنهم يريدون القضاء على الدعوة قبل أن يشتد أمرها ، وذلك كله حق فقد رد كيدهم فى نحورهم ، ورجعوا مهزومين مطرودين .

روى أن أبا جهل قال يوم بدر : اللهم أينا كان أقطع للرحم وآتى بما لا يعرفون فأمته الغداة . فكان ذلك منه استفتاحاً .

وروى أنهم تعلقوا بأستار الكعبة قبل خروجهم وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفئتين وخير القبيلتين ، فأجابهم الله بقوله استهزاءاً بهم وتوبيخاً لهم على عملهم وتعجبا من حالهم .

(١) الآية ١٤ من سورة التوبة .

﴿ **إن تستفتحوا** ﴾ أيها الكفار فقد ﴿ **جاءكم الفتح** ﴾ وهذا منتهى التهكم إذ جاءهم الهلاك والذلة ، ﴿ **وإن تنتهوا** ﴾ وتسلموا وتتركوا عداوة النبى ﷺ ﴿ **فهو خير لكم** ﴾ وأجدى ، وإن تعودوا إلى محاربته نعد نحن إلى نصره وهزيمتكم ، ولن تغنى جماعتكم وقوتها شيئا ولو كثرت ﴿ **وأن الله مع المؤمنين** ﴾ بالنصر والتأييد والتوفيق إلى سلوك طريق النجاح والفلاح ، والعاقبة للمتقين .

تحذير من مخالفة الدين

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾

المفردات : ﴿ **الصم** ﴾ : الصمم عدم السمع والأصم الأطرش . ﴿ **البكم** ﴾ : البكم عدم الكلام والأبكم الأخرس . ﴿ **الدواب** ﴾ : جمع دابة وهى ما تدب على الأرض والغالب استعمالها فى الحشرات والدواب التى تحمل على ظهرها وإذا أريد منها الإنسان كان المقصود الاحتقار .

يا أيها الذين اتصفتم بالإيمان ، أطيعوا الله ورسوله فيما أمر أو نهى ، ولا تعرضوا عن الأمر بالجهاد وبذل المال وغيرهما ، والحال أنكم تسمعون المواعظ والزواجر فى القرآن والحديث .

وإياكم أن تكونوا كالذين قالوا سمعنا ، والحال أنهم لا يسمعون أبدا ، إن شر المخلوقات عند الله من لا يصغى بسمعه إلى الحق فيتبعه ، ويعتبر بالموعظة الحسنة فيعمل بها ، فإن من لا يستخدم جهاز السمع فيما خلق له كان كأنه فاقد له فهو أصم عن الحق والخير والهدى والفلاح والبكم الذين لا يقولون الحق . ومن ثم كانوا كأنهم فقدوا حاسة الكلام ، والذين لا يعقلون الفرق بين النور والظلام ، والهدى والضلال ، والإسلام والكفر .

إذ لو استخدموا عقولهم ، وأبعدوا عنها ذل التقليد وحمى العصبية الجاهلية لعقلوا المنفعة ، وأدركوا الصالح المفيد ، ولكنهم كالبهائم لا يعقلون .

ولو علم الله فيهم الميل إلى الخير والسداد والاستعداد إلى الإيمان والهدى ، ولم تفسد فطرتهم بسوء القدوة وفساد التربية ، لأسمعهم بتوفيقه سماع تدبر ، ووفقهم لكلامه وكلام رسوله ، ولكنه لو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ، فهم لا خير فيهم أصلاً ، ومن يلق إليه شيء لا يخلو من واحدة من أربع .

١ – معاند لا يسمع أبداً بل يجعل أصابعه فى أذنيه .

٢ – منافق يسمع أبداً ويتظاهر بالقبول ساعة الحضور ، ثم هو لا يتدبر ولا يفهم شيئاً .

٣ – يستمع ليتسقط العيوب ويتلمس السقطات .

٤ – يسمع فيهتدى بنور الحق وهم الفئة المؤمنة الموفقة المهدية إلى يوم القيامة .

فيا أيها المسلمون اسمعوا القرآن ، وتدبروا معناه ، واهتدوا بهديه ، ولا تسمعوه تسلية أو تعزية أو تبركاً فقط .

الإستجابة لداعى القرآن

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

ناداهم الله بوصف الإيمان الذى يوجب الامتثال والاستجابة ، ثم أمرهم بأن يستجيبوا لله ولرسوله ، وذلك بالطاعة والامتثال إذا دعاهم لما يحييهم ، وحثهم على الخير لهم ، وحرضهم على ما به يسعدون فى الدنيا والآخرة .

وقد دعانا الرسول للإيمان والقرآن والهدى والجهاد ، ومن حرم من هذا فهو ميت لا حياة فيه . ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ﴾[1] فخذوا ما آتاكم الرسول بقوة وعزم ونشاط وجد فالخير فيه ، وسعادة الدارين معه .

واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ويفصل بينهما ، والمعنى أن المسلم يجب ألا يغتر بعمله وطاعته ، وألا يأمن مكر الله ولو كانت إحدى رجليه فى الجنة ، فالقلوب بين أصابع الرحمن ، والله يحول بين المرء وقلبه ، فالواجب عليه دائماً أن يغذى قلبه بالعمل ، ويجلوه بالذكر ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾[2] .

والواجب على المسلم العاصى ألا ييأس من روح الله ، فالله يحول بين المرء وقلبه ، وعلينا أن نسرع دائما فى الخير ولانألوا جهداً فى تحصيله ، فالله يحول بين المرء وقلبه ، فيموت قبل قفل أبواب الخير أو التوبة الصادقة .

وعلينا أن نحذر خطرات القلوب وأمراضها فالله عليم بذات الصدور ، وهو يفصل بين المرء وقلبه ، ومن كان كذلك فهو أقرب إلى الله من حبل الوريد .

---

(١) الآية ١٢٢ من سورة الأنعام . (٢) الآية ٢٨ من سورة الرعد .

﴿ **واعلموا أنكم إليه تحشرون** ﴾ فأسرعوا فى العمل ، وحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وأعدوا العدة ليوم الحشر .

واتقوا فتنة لا تصيبن الظالمين خاصة ، بل تعمهم وغيرهم ، كالفتن القوية التى تهز كيان الأمة وتزعزع أركانها ، كفتنة الملك والسيادة أو الخلافات السياسية وما يتبعها من أحزاب وانقسام . وكالأحزاب الدينية ، وكظهور البدع ، والكسل عن الجهاد ، أو ظهور المنكرات مع إقرارها ، والالتواء فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فهذه فتن لا تصيب أصحابها فقط ، بل تلتهم نيرانها الأمة جميعاً إذ هم بين رجلين ، رجل اشترك فى الإثم ، ورجل سكت عنه ولم يمنعه ، فهو كالمشترك معه .

انظروا إلى الفتن التى لاحقت الإسلام فى العصر الأول كفتنة عثمان ، وحادثة الجمل ، ومقتل الحسين ، وغيرها ، وكيف كان أثرها .

واعلموا أن الله شديد العقاب على من خالف أمره ، فهو معاقبه فى الدنيا والآخرة ، واذكروا أيها المهاجرون ، وقيل الخطاب لجميع المؤمنين فى عصر التنزيل ، واذكروا وقت أن كنتم قلة مستضعفين فى مكة ، والمشركون معكم بحولهم وطولهم يذيقونكم سوء العذاب ، وأنتم تخافون أن يأخذوكم بسرعة قاطعة كما كان يتخطف بعضهم بعضاً خارج الحرم ﴿ **أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم** ﴾ .

﴿ **فآواكم** ﴾ أيها المهاجرون إلى الأنصار . ﴿ **وأيدكم بنصره** ﴾ وبما أرسل لكم من الملائكة ووفقكم لسبل النجاح ، وبما ألقى فى قلوب أعدائكم من الرعب والخوف ، والله رزقكم من الطيبات رزقا حسنا ، رجاء أن تقوموا بالشكر .

وفى الآية عبرة وعظة لنا فالله يعامل أولياءه ، وأحبابه من المؤمنين إذا امتثلوا أمره بهذا ، أى يؤويهم ويؤيدهم وينصرهم على أعدائهم ، ويجعلهم أعزة وملوكاً ، ويرزقهم من طيبات الرزق ، كل ذلك رجاء قيامهم بالشكر ، فإن شكروا زادهم الله ، وإن لم يشكروا ولم يمتثلوا كما هو حال المسلمين اليوم أصبحوا أذلة فى ديارهم ، مستعبدين فى أوطانهم ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

الخيانة من صفات المنافقين

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

المفردات : ﴿ **لا تخونوا** ﴾ : الخيانة والخون يدلان على النقص واخلاف ما كان يرجى ومنه قيل خانه الحظ ، وخانته رجلاه ثم استعمل الخون والخيانة فى ضد الامانة والوفاء . ﴿ **والأمانة** ﴾ : تدل على كل التمام وهى حق مادى أو معنوى يجب عليك أداؤه . ﴿ **فتنة** ﴾ : هى الاختبار والابتلاء أو المراد بها الإثم والعذاب .

روى أنها نزلت فى أبى لبابة ، وكان حليفا لبنى قريظة من اليهود ، فلما خرج إليهم النبى ﷺ بعد إجلاء بنى النضير ، وحاصرهم حصاراً شديداً دام إحدى وعشرين ليلة ، وقد طلبوا من النبى ﷺ أن يرسل إليهم أبا لبابة ، وكان مناصحاً لهم ، لأن أمواله وعياله فيهم ، فبعثه إليهم فقالوا له : ما ترى ؟ هل ننزل على حكم سعد بن معاذ كما طلب محمد ﷺ ؟ فأشار إلى حلقه أى أن حكم سعد الذبح .. قال أبو لبابة : فما زالت قدماى حتى علمت أنى خنت الله ورسوله ، فنزلت الآية ؟ وقد شد نفسه على سارية المسجد ، وأبى الطعام والشراب حتى الموت ، أو يتوب الله عليه ، ومكث سبعة أيام وبعدها تاب الله عليه ، وفك النبى وثاقه .

يا من اتصفتم بالإيمان وتصديق الرحمن ، والاهتداء بالقرآن لا تخونوا الله فتعطلوا فرائضه ، ، أو تنقصوا شيئاً من أحكامه التى بينها لكم فى كتابه ، فإن ذلك خيانة تتنافى مع الايمان ، ولا تخونوا الرسول فيما أمركم به أو نهاكم عنه ، ولا تخونوه فترغبوا عن بيانه للقرآن فهو أدرى وأقرب فخيانة الله والنبى عبارة عن تعطيل فرائض الدين ، وعدم العمل بأحكامه والاستنان بسنته ، فإن هذا كله نقص لا يليق بالمؤمن المؤتمن على دينه ، على أن الخيانة من صفات المنافقين ، والأمانة من صفات المؤمنين .

ولا تخونوا الأمانة التى فى أيديكم لغيركم ، سواء كانت معاملات مالية أو شئونا أدبية أو سياسية ، أو سراً من الأسرار ، أو عهداً من العهود ، والحال أنكم تعلمون خطر الخيانة وسوء عاقبتها دنيا وأخرى ، وأنتم تعلمون الأمانة ومكانتها ، وقيل المعنى وأنتم تعلمون أن هذا خيانة ، وذلك أمانة كما حصل لأبى لبابة .

واعلموا أن أموالكم وأولادكم فتنة وابتلاء وأى فتنة وابتلاء ؟

إذ المال عند الإنسان شقيق الروح ، يركب الأخطار ، ويتحمل المشاق فى سبيل الحصول عليه فإذا هو أعطى المال ؟ فهل يشكر ويرضى ؟ أم يكفر ويعصى ؟ وإذا حرم منه يصبر ويرضى أم يغضب ويلعن ؟ أليس هو فتنة وابتلاء ؟ على أن المال وحبه الغريزى قد يدفع صاحبه إلى عمل يوقعه فى المهالك والمصائب .

وأما الولد فقطعة من أبويه وفلذة كبدهما ، وثمرة فؤادهما ، وحبه فطرة وطبيعة عند والديه ، ومن ثم يحملهما ذلك على بذل النفس والنفيس فى سبيل راحته وسعادته وقد يؤدى ذلك إلى اقتراف الذنوب والآثام ، وركوب الشطط فى سبيله ، أليست الأولاد فتنة بهذا المعنى وابتلاء ، وقد ورد ﴿ الولد ثمر الفؤاد وإنه مجبنة مبخلة محزنة ﴾[1] أى يدعو إلى ذلك كله .

والواجب على المؤمن أن يتقى الله فى المال فيكسبه من طريق الحلال وينفقه فى سبيل الله ، وعلى العموم يتبع أوامر الدين ، ويخالف نفسه وهواه فإن المال فتنة وابتلاء ، ويتقى الله فى الولد ، فلا يكون حبه داعية من دواعى ارتكابه الإثم والعدوان ويراقب الله فيه فينشئه تنشئة صالحة دينية ، ولا يدفعه حب الولد إلى أن يكون فى جمع المال له كحاطب الليل .

(١) أخرجه ابن ماجه فى الأدب (٣) . والإمام أحمد فى (٤ : ١٧٢) وفى (٥ : ٢١١) .

واعلموا أن الله عنده أجر عظيم وخير كثير ، هو خير من الدنيا وما فيها ، فارعوا الأمانة ، ولا تخونوا الله ورسوله .

تقوى الله وأثرها

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

المفردات : ﴿ **إن تتقوا الله** ﴾ : التقوى من الوقاية وهى امتثال الأمر واجتناب النهى لأن هذا يكون وقاية للعبد من النار . ﴿ **فرقاناً** ﴾ : فارقاً بين الحق والباطل .. الخيانة سببها الإفراط فى حب المال والولد غالباً ، وعلاج هذا كله هو التقوى والاعتدال .

يا أيها المؤمنون إن تتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه يجعل لكم فرقاناً ، فيكون المسلم حيث أمره الله ولا يكون حيث نهاه الله ، هذه التقوى إن حصلت لعبد جعل الله له نوراً يمشى به بين الناس ، وحكمة يهتدى بها وعلماً نافعاً وعملا صالحاً ، وهذا كله يجعله يفرق بين الحق والباطل والنافع والضار ، ويهتدى إلى الصراط المستقيم . كيف لا ؟ والمتقرب إلى الله بالنوافل يكون ربانيا ويكون المولى جل شأنه سمعه وبصره ويده ورجله ، أفتراه يضل بعد هذا ؟ ألست معى فى أن التقوى هى السبيل الأقوى ؟ إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ، ويكفر عنكم سيئاتكم السابقة ، ويسترها ويغفر لكم ذنوبكم ، ويدخلكم جنات النعيم ، والله سبحانه ذو الفضل العظيم .

تآمرهم على رسول الله

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾

المفردات : ﴿ **ليثبتوك** ﴾ : أى ليشدوك بالوثاق ويرهقوك بالقيد والحبس، حتى لا تقدر على الحركة . ﴿ **والمكر** ﴾ : هو التدبير الخفى لإيصال المكروه إلى الممكور به من حيث لا يحتسب، والغالب أن يكون فيما يسوء ويذم من الكذب والحيل، وإذا نسب إلى الله كان من المشاكلة فى الكلام بتسمية خيبة المسعى فى مكرهم أو مجازاتهم عليه باسمه . ﴿ **والأساطير** ﴾ : واحدها أسطورة كأرجوحة وأراجيح وأحدوثة وأحاديث وهى الأقاصيص التى سطرت فى الكتب بدون تمحيص ولا تثبت من صحتها .

روى الإمام محمد بن إسحق بن يسار صاحب المغازى عن عبد الله بن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال : وحدثنى الكلبى عن باذان مولى أم هانئ عن ابن عباس « أن نفراً من قريش من أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة فاعترضهم إبليس فى صورة شيخ جليل فلما رأوه قالوا له : من أنت ؟ قال : شيخ من أهل نجد ، سمعت أنكم اجتمعتم فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم رأيى ونصحى : قالوا : أجل ، ادخل فدخل معهم فقال : انظروا فى شأن هذا الرجل والله ليوشكن أن يواثبكم فى أمركم بأمره . فقال قائل منهم : احبسوه فى وثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء : زهير والنابغة إنما هو كأحدهم . قال : فصرخ عدو الله الشيخ النجدي فقال : والله ما هذا لكم برأى والله ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم ، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم ، قالوا : صدق الشيخ ، فانظروا فى غير هذا . قال قائل منهم : أخرجوه من بين أظهركم فتستريحوا منه ، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع ، وأين وقع إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم ، وكان أمره فى غيركم . فقال الشيخ النجدى : والله ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حلاوة قوله ، وطلاقة لسانه ، وأخذ القلوب ما تسمع من حديثه ؟ والله لئن فعلتم ثم استعرض من العرب ليجتمعن عليه ، ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم . ويقتل أشرافكم ، قالوا صدق والله فانظروا رأياً غير هذا .

قال : فقال أبو جهل لعنه الله : والله لأشيرن عليكم برأى ما أراكم أبصرتموه بعد لا أرى غيره ، قالوا وما هو ؟ قال : تأخذون من كل قبيلة غلاما شابا وسيطا نهداً ثم يعطى كل غلام منهم سيفا صارما ، ثم يضربونه ضربة رجل واحد ، فإذا قتلوه تفرق دمه فى القبائل كلها ، فما أظن هذا الحى من بنى هاشم يقوون على حرب قريش كلها ، فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل واسترحنا وقطعنا عنا أذاه . قال : فقال الشيخ النجدى : هذا والله الرأى . القول ما قال الفتى لا أرى غيره . قال : فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له .

فأتى جبريل النبى ﷺ فأمره أن لا يبيت فى مضجعه الذى كان يبيت فيه ، وأخبره بمكر القوم ، فلم يبت رسول الله ﷺ تلك الليلة ، وأذن الله عند ذلك بالخروج .

وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة الأنفال يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾ .

وأنزل فى قولهم : تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾[1] فكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة ، للذى اجتمعوا عليه من الرأى .

(١) الآية ٣٠ من سورة الطور .

وعن السدى نحو هذا السياق وأنزل الله فى إرادتهم إخراجه قوله تعالى ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلاً ﴾[١].

وكذا روى العوفى عن ابن عباس وروى عن مجاهد وعروة بن الزبير وموسى بن عقبة وقتادة ومقسم وغير واحد نحو ذلك .

وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق فأقام رسول الله ﷺ ينتظر أمر الله حتى إذا اجتمعت قريش فمكرت به ، وأرادوا به ما أرادوا أتاه جبريل عليه السلام فأمره أن لا يبيت فى مكانه الذى كان يبيت فيه ، فدعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب فأمره أن يبيت على فراشه ، ويتسجى ببرد له أخضر ، ففعل ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم وهم على بابه فخرج ومعه حفنة من تراب ، فجعل يذرها على رؤوسهم ، وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه محمد ﷺ ، وهو يقرأ ﴿ يس * والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين * على صراط مستقيم * تنزيل العزيز الرحيم * لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون * لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون * إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون * وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾[٢] .

وقد روى ابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه من حديث عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال دخلت فاطمة على رسول الله ﷺ وهى تبكى فقال « ما يبكيك يا بنية ؟ » قالت يا أبت ومالى لا أبكى وهؤلاء الملأ من قريش فى الحجر يتعاهدون باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى لو قد رأوك لقاموا إليك فيقتلونك ، وليس منهم إلا من قد عرف نصيبه من دمك . فقال « يا بنية ائتنى بوضوء » فتوضأ رسول الله ﷺ ثم خرج إلى المسجد ، فلما رأوه قالوا : ها هو ذا ، فطأطأوا رؤوسهم ، وسقطت رقابهم بين أيديهم ، فلم يرفعوا أبصارهم ، فتناول رسول الله ﷺ قبضة من تراب فحصبهم بها وقال « شاهت الوجوه » فما أصاب رجلا منهم حصاة من حصياته إلا قتل يوم بدر كافرا ، ثم قال الحاكم صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ولا أعرف له علة .

وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرازق أخبرنا معمر أخبرنى عثمان الجريرى عن مقسم مولى ابن عباس أخبره ابن عباس فى قوله ﴿ **وإذ يمكر بك** ﴾ الآية.قال : « تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق يريدون النبى ﷺ ، وقال بعضهم : بل اقتلوه . وقال بعضهم بل أخرجوه ، فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك ، فبات على رضى الله عنه على فراش رسول الله ﷺ وخرج النبى ﷺ حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونه ﷺ ، فلما أصبحوا ثاروا إليه فلما رأوا عليا رد الله تعالى مكرهم ، فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ قال : لا أدرى فاقتصوا أثره ، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا فى الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت ، فقالوا : لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه ، فمكث فيه ثلاث ليال»[٣] .

(١) الآية ٧٦ من سورة الإسراء . (٢) الآيات ١ – ٩ من سورة يس .
(٣) أخرجه البخارى فى اللباس (١٦) . والإمام أحمد فى (٦ : ١٩٨) .

وقال محمد بن إسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير فى قوله ﴿ **ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾ أى : فمكرت بهم بكيدى المتين حتى خلصتك منهم .

إن يد الله تعمل فى الخفاء ﴿ إن بطش ربك لشديد * إنه هو يبدىء ويعيد * وهو الغفور الودود * ذو العرش المجيد * فعال لما يريد ﴾(١) . ﴿ وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾(٢) ﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله * إن الله عزيز ذو انتقام ﴾(٣) قوله تعالى : ﴿ **وإذا تتلى عليهم أياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين** ﴾ .

هذا موقف من مواقفهم التى تدل دلالة قاطعة على أنهم مفلسون . وفى نفس الوقت معاندون ﴿ **لو نشاء لقلنا مثل هذا** ﴾ وما يمنعكم أن تقولوا وأنتم فى مجال التحدى ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾(٤) ﴿ ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾(٥) .

﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين * بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ﴾(٦) .

﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سوَر مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إلّه إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾(٧) .

﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾(٨) .

لقد عجزوا وهم أرباب البلاغة وأساطين الفصاحة . فماذا يفعلون ، أظهروا خبيئة أنفسهم التى هاجت فيها عقارب البغضاء وجراثيم السوء ، وعقارب الحقد ، وعناكب الخراب ، فماذا يقولون عن القرآن بعد عجزهم قالوا :«إن هذا إلا أساطير الأولين» وكذبوا ، فكلام الله حق منزه عن الباطل ، بعيد عن الخرافات ﴿ وبالحق أنزلنا وبالحق نزل ﴾(٩) ﴿ وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه * تنزيل من حكيم حميد ﴾(١٠).

لقد كان القرآن ومازال وسيظل غضا ، نديا ، يتقاطر نورا ورحمة ، لا تستطيع القرون وإن تباعدت أن تصيب أسلوبه بشىء من الجفاف ، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن علم علمه سبق ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم ، لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب

---

(١) الآيات ١٢ — ١٦ من سورة البروج .
(٢) الآية ٤٦ من سورة إبراهيم .
(٣) الآية ٤٧ من سورة إبراهيم .
(٤) الآية ٨٨ من سورة الإسراء .
(٥) الآية ٨٩ من سورة الإسراء .
(٦) الآيتان ٣٨ ، ٣٩ من سورة يونس .
(٧) الآيات ١٣ ، ١٤ من سورة هود .
(٨) الآية ٣٤ من سورة الطور .
(٩) الآية ١٠٥ من سورة الإسراء .
(١٠) الآيتان ٤١ ، ٤٢ من سورة فصلت .

معه الآراء ، ولا تمله الأتقياء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب اقرءوه وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا .

الله أكبر إن دين محمد ... وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده ... طلع الصباح فأطفئوا القنديلا

كبر وعناد

وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

المفردات : ﴿ **مكاء** ﴾ : صفيراً . ﴿ **تصدية** ﴾ : تصفيقاً .

واذكر إذ قالت قريش : اللهم إن كان هذا القرآن هو الحق من عندك لاشك فيه ولا مرية ، فعاقبنا على الكفر به ، بحجارة من سجيل كما عاقبت أصحاب الفيل ، ومرادهم إنكار كونه حقاً منزلا من عند الله ، كأنهم قالوا إن كان الباطل حقاً فأتنا بعذاب أليم ، تراهم علقوا نزول العذاب على محال فى ظنهم ، وفى تعبيرهم ﴿ **هذا هو الحق** ﴾ المفيد للتخصيص تهكم بمن يقول : القرآن حق . فهذا أسلوب بليغ فى الجحود والإنكار .

إن كان هذا القرآن هو الحق دون غيره ، فأمطر علينا حجارة من السماء هى الحجارة المسومة للعذاب أو ائتنا بعذاب أليم آخر .

وهذا هو بيان لموجب التأخير فى إجابة دعائهم .

وما كان من مقتضى سنة الله ورحمته وحكمته أن يعذبهم بعذاب الاستئصال وأنت فيهم ، قد بعثت رحمة للعالمين ، وما عذب الله أمة ونبيها معها .

وما كان الله ليعذبهم والحال أنهم يستغفرون ، أى ولو كانوا ممن يؤمن ويستغفر لما عذبهم الله أبداً ، ولكنهم قوم مردوا على الكفر والشرك فلن يتوقع منهم ذلك ، وقيل وما كان ينبغى تعذيبهم وفيهم من يستغفر الله من المؤمنين الذين بين ظهرانيهم .

وتقييد نفس العذاب بكون الرسول معهم دليل على أن العذاب يترصدهم ، وأنهم معذبون لا محالة بدليل قوله تعالى : ﴿ **وماهم ألا يعذبهم الله** ﴾ ؟ على معنى وأى شىء ثابت لهم حتى ينتفى عنهم العذاب ، فهم معذبون لا محالة .

وكيف لا يعذبون ؟ وهم يصدون الناس عن المسجد الحرام كما صدوا رسول الله عنه عام الحديبية ، ألم يخرجوا النبى وصحبه من المسجد الحرام ؟ أفلا يكون هذا صداً عنه ؟ وكانوا يقولون نحن أولياء البيت الحرام نصد من نشاء وندخل من نشاء ، فيرد الله عليهم بقوله وما كانوا أولياءه ، وكيف يكونون أولياء له مع شركهم وعداوتهم للنبى ﷺ ؟ وما أولياؤه وأحبابه إلا المتقون المؤمنون من المسلمين فقط ، وليس كل مسلم يوصف بأنه ولى الله .

ولكن أكثرهم لا يعلمون ذلك ، وقيل منهم من يعرف حقيقة نفسه .. وقد كانوا يطوفون بالبيت عراة رجالاً ونساءاً مع الصفير والتصفيق وقد سجل الله عليهم ذلك . وما كان صلاتهم عند البيت الكريم إلا صفيراً وتصفيقاً فكان طوافهم وصلاتهم من قبيل اللهو واللعب .

فذوقوا العذاب الأليم المعد لكم بسبب كفركم وشرككم .

لا يصلح الله عمل المفسدين

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾

المفردات : ﴿ **حسرة** ﴾ : ندامة وألماً . ﴿ **فيركمه** ﴾ : أى فيجمعه .

قال محمد بن إسحق : حدثنى الزهرى ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعيد بن معاذ قالوا : لما أصيبت قريش يوم بدر ورجع فلهم إلى مكة ، ورجع أبو سفيان بعيره ، مشى عبد الله بن أبى ربيعة وعكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية فى رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر ، فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا يا معشر قريش إن محمدا قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه ، لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا ، ففعلوا قال : ففيهم كما ذكر عن ابن عباس أنزل الله عز وجل ﴿ **إن الذين كفروا ينفقون أموالهم** ﴾ إلى قوله ﴿ **هم الخاسرون** ﴾ .

وكذا روى عن مجاهد وسعيد بن جبير والحكم بن عيينة وقتادة والسدى وابن أبزى أنها نزلت فى أبى سفيان ونفقته الأموال فى أحد لقتال رسول الله ﷺ .

وقال الضحاك : نزلت فى أهل بدر .

وعلى كل تقدير فهى عامة وإن كان سبب نزولها خاصا ، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق فسيفعلون ذلك ثم تذهب أموالهم ثم تكون عليهم حسرة أى ندامة حيث لم تجد شيئاً ، لأنهم أرادوا إطفاء نور الله ، وظهور كلمتهم على كلمة الحق ، والله متم نوره ولو كره الكافرون ، وناصر دينه ، ومعلن كلمته ، ومظهر دينه على كل دين ، فهذا الخزى لهم فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب النار ، فمن عاش منهم رأى بعينه ، وسمع بأذنه ، ما يسوؤه ، ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزى الأبدى ، والعذاب السرمدى .

ولهذا قال ﴿ **فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون** ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ **يميز الله الخبيث من الطيب** ﴾ قال على بن أبى طلحة : عن ابن عباس فى قوله ﴿ **يميز الله الخبيث من الطيب** ﴾ : فيميز أهل السعادة من أهل الشقاء .

وقال السدى : يميز المؤمن من الكافر . وهذا يحتمل أن يكون هذا التميز فى الآخرة كقوله ﴿ **ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم** ﴾ . وقوله : ﴿ **ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون** ﴾ وقال فى الآية الأخرى ﴿ **يومئذ يصدعون** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وامتازوا اليوم أيها المجرمون** ﴾ .

ويحتمل أن يكون هذا التمييز فى الدنيا بما ظهر من أعمالهم للمؤمنين ، وتكون اللام معللة لما جعل الله للكافرين من مال ينفقونه فى الصد عن سبيل الله ﴿ **يميز الله الخبيث من الطيب** ﴾ أى من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين ، أو يعصيه بالنكول عن ذلك ، كقوله : ﴿ **وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله * وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لا تبعناكم** ﴾ .

وقال تعالى ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾[1] .

وقال تعالى ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾[2] ونظيرتها فى براءة أيضا .

فمعنى الآية على هذا إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم ، وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبذلها فى ذلك ﴿ **يميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً** ﴾ أى يجمعه كله ، وهو

(١) الآية ١٧٩ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ١٤٢ من سورة آل عمران .

جمع الشيء بعضه على بعض كما قال تعالى فى السحاب ﴿ **ثم يجعله ركاما** ﴾ أى متراكما متراكبا ﴿ **فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون** ﴾ أى هؤلاء هم الخاسرون فى الدنيا والآخرة .

ترغيب وترهيب

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾

هذا خطاب من الله تعالى إلى الأمة الإسلامية فى صورة رئيسها ورسولها محمد ﷺ ، أن يبلغ المشركين بهذا الخبر الإلهى ﴿ **إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف** ﴾ .

جاء فى الصحيح من حديث أبى وائل عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « من أحسن فى الإسلام لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية ، ومن أساء فى الإسلام أخذ بالأول والآخر »[(١)] .

وفى الصحيح أيضا أن رسول الله ﷺ قال: « الإسلام يجب ما قبله والتوبة تجب ما كان قبلها »[(٢)] .

وقوله ﴿ **وإن يعودوا** ﴾ أى يستمروا على ما هم فيه ﴿ **فقد مضت سنة الأولين** ﴾ أى فقد مضت سنتنا فى الأولين أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم أنا نعاجلهم بالعذاب والعقوبة .

قال مجاهد فى قوله : ﴿ **فقد مضت سنة الأولين** ﴾ أى فى قريش يوم بدر وغيرها من الأمم .

وقال السدى ومحمد بن إسحق : أى يوم بدر .

وقوله تعالى : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾ .

قال البخارى حدثنا الحسن بن عبد العزيز حدثنا عبد الله بن يحيى حدثنا حيوة بن شريح عن بكر بن عمر عن بكير عن نافع عن ابن عمر أن رجلا جاء فقال : يا أبا عبد الرحمن ألا تصنع ما ذكر الله فى كتابه ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾[(٣)] فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله فى كتابه ؟ فقال : يا ابن أخى أُعَيَّرُ بهذه الآية ولا أقاتل أحب إلى من أن أُعَيَّرَ بالآية التى يقول الله عز وجل ﴿ **ومن يقتل مؤمنا متعمداً** ﴾ إلى آخر الآية قال : فإن الله تعالى يقول ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة** ﴾ قال ابن عمر قد

---

(١) أخرجه البخارى فى المرتدين (١) . ومسلم فى الإيمان (١٨٩ ، ١٩٠) . وأبو داود فى الديات (٢٥) . وابن ماجه فى الزهد (٢٩) . والدارمى فى القدمة (١) وفى الديات (٢٥) . والإمام أحمد فى (١ : ٣٧٩ ، ٤٠٩ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ ، ٤٦٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى (٤ : ١٩٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥) .

(٣) الآية ٩ من سورة الحجرات .

فعلنا على عهد رسول الله ﷺ ، إذ كان الإسلام قليلا ، وكان الرجل يفتن فى دينه ، إما أن يقتلوه وإما أن يوثقوه ، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة . فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يريد قال : فما قولكم فى على وعثمان ؟ قال ابن عمر : أما قولى فى على وعثمان : أما عثمان فكان الله قد عفا عنه وكرهتم أن يعفو الله عنه ، وأما على فابن عم رسول الله ﷺ وختنه ،وأشار بيده وهذه ابنته أو بنته حيث ترون [(١)] .

عن سعيد بن جبير قال : « خرج علينا – أو إلينا – ابن عمر رضى الله عنهما فقال : كيف ترى فى قتال الفتنة ؟ فقال : وهل تدرى ما الفتنة ؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين وكان الدخول عليهم فتنة ، وليس يقتالكم على الملك » [(٢)] .

هذا كله سياق البخارى رحمه الله .

وقال عبيد الله عن نافع عن ابن عمر : [أنه أتاه رجلان فى فتنة ابن الزبير فقالا . إن الناس قد صنعوا ما ترى وأنت ابن عمر بن الخطاب وأنت صاحب رسول الله ﷺ فما يمنعك أن تخرج ؟ قال : يمنعنى أن الله حرم على دم أخى المسلم . قالوا : أو لم يقل الله ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ؟ ﴾ قال : قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة ، وكان الدين كله لله ، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله] [(٣)] .

كذا روى حماد بن سلمة عن على بن زيد عن أيوب بن عبد الله اللخمى قال : (كنت عند عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فأتاه رجل فقال : إن الله يقول ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾ قال : قاتلنـا حتى لم تكن فتنة ، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ، ويكون الدين لغير الله) .

وكذا رواه حماد بن سلمة فقال ابن عمر : (قاتلت أنا وأصحابى حتى كان الدين كله لله ، وذهب الشرك ، ولم تكن فتنة ، ولكنك وأصحابك تقاتلون حتى تكون فتنة ، ويكون الدين لغير الله) رواهما ابن مردويه .

وقال أبو عوانة عن الأعمش عن إبراهيم التيمى عن أبيه قال : قال ذو البطين يعنى أسامة بن زيد : (لا أقاتل رجلا يقول لا إله إلا الله أبدا . فقال سعد بن مالك : وأنا والله لا أقاتل رجلا يقول لا إله إلا الله أبدا . فقال رجل : ألم يقل الله ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾ فقالا : قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة . وكان الدين كله لله) رواه ابن مردويه .

(١) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة : ٢) حديث (٣٠) وتفسير (سورة : ٥) حديث (٨) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى (٢ : ٧٠) . (٣) أخرجه ابن ماجه فى الفتن (١) .

وعن ابن عباس ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة** ﴾ يعنى لا يكون شرك .

وكذا قال أبو العالية ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، والسدى ، ومقاتل بن حيان ، وزيد بن أسلم .

وقال محمد بن اسحق بلغنى عن الزهرى عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا (حتى لا تكون فتنة حتى لا يفتن مسلم عن دينه) .

وقوله : ﴿ **ويكون الدين كله لله** ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس فى هذه الآية قال : يخلص التوحيد لله .

وقال الحسن وقتاده وابن جريج ﴿ **ويكون الدين كله لله** ﴾ أن يقال لا إله إلا الله .

وقال محمد بن إسحق : ويكون التوحيد خالصاً لله ليس فيه شرك . ويخلع ما دونه من الأنداد .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿ **ويكون الدين كله لله** ﴾ : لا يكون مع دينكم كفر .

ويشهد لهذا ما ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله عز وجل »[١] .

وفيهما عن أبى موسى الأشعرى قال سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، أى ذلك فى سبيل الله عز وجل فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله عز وجل »[٢] .

وقوله ﴿ **فإن انتهوا** ﴾ أى بقتالكم عما هم فيه من الكفر فكفوا عنه ، وإن لم تعلموا بواطنهم ﴿ **فإن الله بما يعملون بصير** ﴾ كقوله : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾[٣] وفى الآية الأخرى ﴿ فإخوانكم فى الدين ﴾[٤] وقال ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾[٥] .

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأسامة لما علا ذلك الرجل بالسيف فقال لا إله إلا الله فضربه فقتله فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال لأسامة « أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله . وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة » فقال يا رسول الله إنما قالها تعوذاً قال « هلا شققت عن قلبه ؟ » وجعل يقول

(١) أخرجه البخارى فى الإيمان (١٧) وفى الزكاة (١) وفى الصلاة (٢٨) . ومسلم فى الإيمان (٣٢) . وأبو داود فى الزكاة (١) وفى الجهاد (٩٥) . والترمذى فى الإيمان (٢٠) . والنسائى فى الزكاة (٣) .

(٢) أخرجه البخارى فى العلم (٤٥) وفى التوحيد (٢٨) . ومسلم فى الإمارة (١٥٠ ، ١٥١) . والترمذى فى فضل الجهاد (٦) وابن ماجه فى الجهاد (١٣) . والإمام أحمد فى (٤ : ٣٩٧ ، ٤٠٥ ، ٤١٧) .

(٣) الآية ٥ من سورة التوبة .

(٤) الآية ٥ من سورة الأحزاب .

(٥) الآية ١٩٣ من سورة البقرة .

ويكرر عليه « من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة » قال أسامة : حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت إلا يومئذ »[(١)]

وقوله : ﴿ **وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير** ﴾ أى وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم ، فاعلموا أن الله مولاكم سيدكم وناصركم على أعدائكم ، فنعم المولى ونعم النصير .

وقال محمد بن جرير : حدثنى عبد الوارث بن عبد الصمد حدثنا أبى حدثنا أبان العطار حدثنا هشام ابن عروة عن عروة أن عبد الملك بن مروان كتب إليه يسأله عن أشياء فكتب إليه عروة : سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو،أما بعد:فإنك كتبت إلى تسألنى عن مخرج رسول الله ﷺ من مكة ، وسأخبرك به ولا حول ولا قوة إلا بالله : كان من شأن خروج رسول الله ﷺ من مكة أن الله أعطاه النبوة ، فنعم النبى ، ونعم السيد ، ونعم العشيرة ، فجزاه الله خيرا ، وعرفنا وجهه فى الجنة ، وأحيانا على ملته . وأماتنا ، وبعثنا عليها ، وإنه لما دعا قومه لما بعثه الله به من الهدى والنور الذى أنزل عليه لم يبعدوا منه أول ما دعاهم إليه ، وكانوا يسمعون له حتى إذا ذكر طواغيتهم ، وقدم ناس من الطائف من قريش لهم أموال أنكر ذلك عليه ناس ، واشتدوا عليه وكرهوا ما قال ، وأغروا به من أطاعهم ، فانعطف عنه عامة الناس فتركوه إلا من حفظه الله منهم.وهم قليل ، فمكث بذلك ما قدر الله أن يمكث ثم ائتمرت رءوسهم بأن يفتنوا من اتبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم ، فكانت فتنة شديدة الزلزال ، فافتتن من افتتن ، وعصم الله من شاء منهم ، فلما فعل ذلك بالمسلمين أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة ، وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشى ، لا يظلم أحد بأرضه ، وكان يثنى عليه مع ذلك . وكانت أرض الحبشة متجراً لقريش يتجرون فيها ، وكانت مساكن لتجارهم يجدون فيها كثيراً من الرزق ، وأمنا ومتجراً حسناً . فأمرهم بها النبى ﷺ ، فذهب إليها عامتهم لما قهروا بمكة ، وخافوا عليهم الفتن .

ومكث هو فلم يبرح ، فمكث بذلك سنوات يشتدون على من أسلم منهم ، ثم إنه فشا الإسلام فيها ، ودخل فيه رجال من أشرافهم ومنعتهم ، فلما رأوا ذلك استرخوا استرخاءاً عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه ، وكانت الفتنة الأولى هى التى أخرجت من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ قبل أرض الحبشة مخافتها وفراراً مما كانوا فيه من الفتن والزلزال ، فلما استرخى عنهم ودخل فى الإسلام من دخل منهم ، تحدث باسترخائهم عنهم ، فبلغ من كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ أنه قد استرخى عمن كان منهم بمكة ، وأنهم لا يفتنون فرجعوا إلى مكة وكادوا يأمنون بها ، وجعلوا يزدادون ويكثرون .

(١) أخرجه مسلم فى الإيمان (١٥٨) . وأبو داود فى الجهاد (٩٥) . وابن ماجه فى الفتن (١) . والإمام أحمد فى (٤ : ٤٣٩) وفى (٥ : ٢٠٧) .

وأنه أسلم من الأنصار بالمدينة ناس كثير . وفشا الإسلام بالمدينة وطفق أهل المدينة يأتون رسول الله ﷺ بمكة ، فلما رأت قريش ذلك تآمروا على أن يفتنوهم ويشتدوا فأخذوهم ، فحرصوا على أن يفتنوهم ، فأصابهم جهد شديد ، فكانت الفتنة الآخرة ، فكانت فتنتان : فتنة أخرجت من خرج منهم إلى أرض الحبشة حين أمرهم النبى ﷺ بها ، وأذن لهم فى الخروج إليها ، وفتنة لما رجعوا ورأوا من يأتيهم من أهل المدينة .

ثم إنه جاء رسول الله ﷺ من المدينة سبعون نقيباً رءوس الذين أسلموا فوافوه بالحج ، فبايعوه بالعقبة ، وأعطوه عهودهم ومواثيقهم على أنا منك وأنت منا ، وعلى أن من جاء من أصحابك أو جئتنا فإنا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا ، فاشتدت عليهم قريش عند ذلك ، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يخرجوا إلى المدينة ، وهى الفتنة الآخرة التى أخرج فيها رسول الله ﷺ أصحابه ، وخرج هو ، وهى التى أنزل الله عز وجل فيها ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾ ذكره ابن كثير .